خطبة الحجاج بن يوسف

حين ولي العراق

دراسة بلاغية نقدية

الدكتور

صلاح حبيب سليمان

مدرس البلاغة والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية

والعربية للبنات بسوهاج

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

نحمدك اللهم حمداً يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك، ونعوذ بك من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، ونتوكل عليك ونثنى عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، ونصلى ونسلم على من حكم بحكمك ، وقضى بشرعك ، فقاد البشرية برفق إلى نور الهدى والإيمان ، نبيك محمد ، وعلى آله ، وصحبه ، ومن اهتدى بهديه ، واتبع سنته ، ونهج نهجه إلى يوم الدين.

وبعد

فإن الخطابة فن من فنون القول لا يقل شأناً في التأثير عن الشعر؛ ولذلك فقد عرفه العرب منذ القدم، وبرَّز فيه العديد من خطبائهم الذين أوتوا طلاقة لسان، وحسن صياغة، وقدرة على التأثير والإقناع، وامتلكوا من مفردات وتراكيب اللغة ما جعل خطبهم قوية مؤثرة.

وقد سجل التاريخ أسماء أعلام لهذا الفن ، وخلدهم بخطبهم التي ما زالت تتناقلها كتب اللغة وآدابها حتى عصرنا هذا ، أمثال: أكثم الصيفى، وقس بن ساعدة، وهانئ بن قبيصة الشيبانى، وغيرهم من خطباء الجاهلية الذين كانت خطبهم في أغلب الأمر ذات صبغة حماسية.

ومع ظهور الإسلام واتساع رقعته، انتشرت الخطابة انتشاراً هائلاً، وتنوعت اتجاهاتها وأغراضها تنوعاً مواكباً لكثرة الأحداث، وتعدد الفتوحات التي كانت تتطلب من القادة أن يكونوا خطباء قادرين على بث روح الشجاعة والإقدام في نفوس المجاهدين.

وفي العصر الأموي سطع نجم العديد من الخطباء الذين بهرت خطبهم العقول، وامتلكت القلوب، ونالت حظاً وافراً من التأثير والاستحسان، سواء في ذلك خطباء البيت الأموي أمثال: معاوية بن أبى سفيان، ويزيد بن معاوية، وعبد الملك بن مروان، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وخطباء القادة والمصلحين أمثال: زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلى، والحسن البصري، وغيرهم .

وقد كان لخطبة الحجاج التي ألقاها في المسجد الجامع بالكوفة حين ولى العراق مكانة عالية بين الخطب السابقة واللاحقة لها على حد السواء، وعلى الرغم من شهرة هذه الخطبة وجودتها من الناحية الفنية، إلا أنها لم تنل حظها من الدراسات البلاغية التي تبرز ما تمتاز به من جمال فني.

لذا كان اتجاهي بهذا البحث نحوها لدراستها دراسة بلاغية مستفيضة، تحاول كشف سمات وخصائص ألفاظها، وتراكيبها، وأسلوبها بوجه عام.

وقد قامت خطة البحث على تقسيمه إلى مبحثين، قبلهما مقدمة وتمهيد، وبعدهما خاتمة ، وفهرسة بأهم مصادر ومراجع البحث ، وفهرسة أخرى للموضوعات التي اشتمل عليها .

أما المقدمة فقد أشرت فيها إلى مكانة الخطابة كفن من فنون القول عرفه العرب وامتدحوه، ثم إلى تنوعها وازدهارها بعد ظهور الإسلام، كما أشرت فيها إلى مكانة هذه الخطبه بين خطب العرب المأثورة.

وأما التمهيد فقد تحدثت فيه عن الحجاج بن يوسف صاحب الخطبة محل الدراسة، نسبه، وولايته العراق، وكيفية دخوله الكوفة واستقبال الناس له، ثم ذكرت بعضاً من مواقفه، ثم تحدثت فيه عن الخطبة وأشهر الكتب التي ذكرتها.

وأما المبحثان فقد خصصت أولهما لتحليل الخطبة تحليلاً بلاغياً تناول ألفاظها، وتراكيبها، وصورها.

وخصصت الآخر للحديث عن أسلوبها ، وأهم السمات والخصائص التي يتميز بها.

وأما الخاتمة فقد ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث، وأشرت فيها إلى أن تراثنا النثري ما زال في حاجة للعديد من الدراسات البلاغية التي تكشف عما ينطوي عليه هذا التراث من أسرار بلاغية، وخصائص فنية.

والله الهادي إلى سواء السبيل

د/ **صلاح حبيب سليمان**

تمهيد
الحجاج بن يوسف الثقفي

هو: الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن عامر بن مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف أبو محمد الثقفي(١).

ولد سنة تسع وثلاثين للهجرة، وقيل: سنة إحدى وأربعين، ويذكر أنه ولد ولا مخرج له حتى فتق له مخرج، وأنه لم يرتضع أياماً حتى سقوه دم جدي، ثم دم سالخ ، ولطخ وجهه بدمه فارتضع(٢).

نشأ شاباً لبيباً فصيحاً، بليغاً، حافظاً للقرآن، كان يقرأه كل ليلة، قال أبو عمرو بن العلاء عنه: ما رأيت أفصح منه ، ومن الحسن البصري، لكن الحسن البصري كان أفصح (٣).

وكان آية في البلاغة وفصاحة اللسان وقوة الحجة، قال عنه الأصمعي: أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل: الشعبي، وعبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، وابن القرية ، والحجاج أفصحهم(٤).

---

(١) راجع:الكامل في التاريخ لعز الدين بن الأثير٤/٢٨٤. مراجعة وتصحيح د/ محمد يوسف الدقاق ــ ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط:الرابعة:١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٣م، البداية والنهاية لابن كثيرم٥ ج٩/١١٤،نشر:دار المنار ــ القاهرة ــ ط:أولى ١٤٢١هـ ٢٠٠١م، الأعلام للزركلي:٢/١٦٨، ط:دار العلم للملايين.ط:خامسة، ٢٠٠٢م.

(٢) راجع: مروج الذهب للمسعودى: ٣/١٥١ شرح د/ مفيد محمد قميحة ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت بدون تاريخ. البداية والنهاية:٩/١١٥ .والسالخ :الأسود من الحيات(اللسان سلخ).

(٣) راجع: زهر الآداب للقيرواني:٤/٩٧٦ تحقيق د/ محمد محيى الدين عبد الحميد، ط:دار الجيل ــ بيروت، ط: خامسة ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٩م، البداية والنهاية:٩/١١٦.

(٤) راجع: تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١٠/١٤١ تحقيق/ محب الدين العمروي. ط:دار الفكر ــ بيروت ــ ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

ومن مآثره اهتمامه بوضع النقط والشكل للمصحف الشريف ، ونسخه عدة مصاحف من مصاحف عثمان، وإرسالها إلى بقية الأمصار.

وقد كثرت الفتوحات الإسلامية أيامه واتسعت حتى بلغت بلاد الهند والسند[١].

ولاه عبد الملك بن مروان الحجاز سنة ثلاث وسبعين للهجرة ليقضى به على فتنة عبد الله بن الزبير بن العوام وأعوانه ، فلما قتله عزله عنها.

ثم ولاه العراق سنة خمس وسبعين ، فسار في اثني عشر راكباً على النجائب حتى دخل الكوفة حين انتشر النهار فجأة، فبدأ بالمسجد، فصعد المنبر، وهو متلثم بعمامة خزٍّ حمراء، فقال علىَّ بالناس، فحسبوه وأصحابه خارجية فهموا به، وهو جالس على المنبر ينتظر اجتماعهم، فاجتمع الناس، وهو ساكت قد أطال السكوت، فهموا بحصبه بالحصى، وقالوا: قبحَّ الله بني أمية حيث يستعملون مثل هذا على العراق[٢].

فلما رأى الحيرة والاستنكار في عيونهم كشف عن وجهه ، ونهض ، وخطبهم هذه الخطبة التي نزلت عليهم كالصاعقة ، حتى أسقطت الحصى من أيديهم[٣].

---

(١) راجع:البداية والنهاية:١١٥/٩، وزهر الآداب للقيرواني:٩٠٢/٢، تحقيق/على محمد البجاوي ط:البابى الحلبى.ط:ثانية. بدون تاريخ.

(٢) يروى أنه كان أخفش العينين، أصكّ الرجلين،مسموح الجاعرتين ــ والجاعرتان طرفا الوركين المشرفان على الفخذين ــ إلى رأس كبير مستطيل كأنه غرس بين كتفيه، راجع: نهاية الأرب في فنون العرب : ٢١ / ١٣٥ . تحقيق د/ مفيد قميحة وآخرين . ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط: أولى ١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٤م .

(٣) راجع: تاريخ الطبرى:٢٠٢/٧ وما بعدها، تقديم/ صدقى جميل العطار ــ نشر: دار الفكر ــ بيروت ــ ط: أولى ــ ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٨م ، الكامل في التاريخ: ١٣٨/٤، تاريخ ابن خلدون ٤٩/٣ ، ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ط: أولى ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢م .

فلما نزل قال لوجوه القوم ما كانت الولاة تفعل بالعصاة ؟! قالوا : كانت تضرب وتحبس ، قال : ولكن ليس لهم عندي إلا السيف ، إن المسلمين لو لم يغزوا المشركين لغزاهم المشركون ، ولو ساغت المعصية لأهلها ما قوتل عَدو ، ولا جُبِئَ فيءٌ ، ولا عزَّ دين[١].

(١) راجع:الكامل في اللغة والأدب للمبرد:٢٨٦/٣ تحقيق د/محمد أبو الفضل إبراهيم ــ نشر:دار الفكر العربي ــ القاهرة ــ ط:الثالثة،١٤١٧هـ ــ ١٩٩٧م.

مواقف من حياة الحجاج

كان الحجاج ـ على الرغم مما عرف عنه من الغلظة والقسوة ـ رقيق القلب ، يبكى حينما يتحدث عن الموت والقبر ، روى أنه خطب في الناس يوماً فذكر القبر فما زال يقول : إنه بيت الوحدة ، إنه بيت الغربة ، إنه بيت كذا وكذا حتى بكى وأبكى الناس من حوله[١].

وكان يلين لبعض المواقف الإنسانية التي تحرك المشاعر ، وتهز القلوب ، فيستجيب ويعفو ، حكى أن عبد الملك أمره بقتل أسلم بن عبد البكري بشيء بلغه عنه، فطلبه الحجاج ، فلما أحضر قال للحجاج : أمير المؤمنين غائب وأنت حاضر، والله تعالى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾[٢] والذي بلغه عني باطل، فاكتب إلى أمير المؤمنين أني أعول أربعاً وعشرين امرأة، ليس لهم عائل غيرى، وهن بالباب، فأحضرهن، فهذه أمه، وهذه عمته، وهذه زوجته، وهذه بنته، حتى كان في آخرهن جارية قاربت عشر سنوات، فقال لها: مَن أنت منه؟ قالت: ابنته! أصلح الله الأمير، ثم جثت على ركبتيها أمامه، وأنشأت تقول:

أَحجّاج لَم تَشهد مقامَ ... وَعمّاتهِ يُندبنهُ اللّيلَ

أَحجّاجُ كم تقتلْ به إن ... ثَمانياً وعشراً واثنتين

أَحجّاج من هذا يَقومُ ... عَلينا فَمهلاً أن تَزِدنا

أَحجّاجُ إمّا أَن تَجودَ بِنعمةٍ ... عَلينا وإمّا أَن تُقتّلنا مَعا

---

(١) راجع: الكامل في التاريخ: ٢٨٤/٤ ، البداية والنهاية: ١٢١/٩ .

(٢) سورة الحجرات من الآية :٦ .

فبكى الحجاج وقال: والله لا أعنت الدهر عليكن ولا زدتكن تضعضعاً، وكتب إلى عبد الملك بخبر الرجل والجارية، فكتب إليه عبد الملك بإطلاق الرجل وحسن صلته، وتفقد الجارية في كل وقت ، ففعل[١].

وكان الحجاج يحب الصدق، ويكافئ به، وأحياناً يعفو عمن هَمَّ بقتله إن صدق، روى أن شابين خرجا على الحجاج، وشقا عصا الطاعة له، فطلبهما، فلم يجدهما، فأخبر أن أباهما لا يكذب، فذهب إليه، فسأله: أين ابناك؟ قال: هما في الدار، فقال الحجاج: لقد عفونا عنهما بصدقك، ثم انصرف، وقيل: أتى الحجاج بأسيرين من أصحاب ابن الأشعث، فأمر بقتلهما، فقال أحدهما:إن لى عندك يداً: فقال الحجاج: وما هي؟ قال: ذكر ابن الأشعث أمَّك يوماً فرددت عليه.قال:ومن يشهد لك؟ قال:صاحبى هذا، فسأله. قال:نعم. فقال:ما منعك أن تفعل كما فعل صاحبك؟ قال: بغضك. فقال الحجاج: أطلقوا هذا لصدقه، وهذا لفعله. فأطلقوهما[٢].

---

(١) راجع : الكامل في التاريخ : ٢٨٤/٤ وما بعدها ، البداية والنهاية : ١٢١/٩ .

(٢) راجع الكامل للمبرد : ٢١٢/٢ ، البداية والنهاية : ١٢١/٩ .

وفاته

توفى الحجاج في شوال سنة خمس وتسعين للهجرة، وقيل: كانت وفاته لخمس بقين من رمضان، وله من العمر أربع وخمسون سنة،وقيل: ثلاث وخمسون، وكانت ولايته للعراق عشرين سنة[١].

قيل : لما حضرته الوفاة قال : اللهم اغفر لى فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل، وعن الأصمعى قال : لما حضرت الحجاج الوفاة أنشأ يقول :

يـــا رَبِّ قَـــد حَلَـــفَ الأَعَـــداءُ ... بـــإِنَّني رجـــل مِـــن ســـاكِني النـــارِ

أَيَحلِفُـــونَ عَلَـــى عَميـــاءَ وَيَحَهُـــمُ ... مَـــا علمُهُـــم بِعَظـــيمِ العَفـــوِ غَفّـــارِ

وزاد بعضهم:

إن المـــوالي إذا شـــابت عبيـــدهم ... فـــي رقهـــم عتقـــوهم عتـــق أبـــرار

وأنـت يـا خـالقي أولـى بـذا كرمـا ... قـد شـبت فـي الـرق فـاعتقني مـن النار[٢]

وقيل: لما حضرته الوفاة، وأيقن بالموت، قال: أسندونى! وأذن للناس فدخلوا عليه ، فذكر الموت وكربه ، واللحد ووحشته ، والدنيا وزوالها ، والآخرة وأهوالها ، وأنشأ يقول :

إن ذنـــوبي وزن الســـموات والأر ... ض وظنـــى بخـــالقى أن يحـــابى

فلـئن مـنَّ بالرضـا فهـو ظنـى ... ولـــئن مـــر بالكتـــاب عـــذابى

لـم يكـن ذاك منـه ظلمـا وهـل ... يظلـــم رب يرجـــى لحســـن

---

(١) راجع:الكامل في التاريخ:٤/٢٨٣، وما بعدها، سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي:٥/٣٠٢ ــ ط: دار القلم ــ بيروت ــ بدون تاريخ.

(٢) راجع:البداية والنهاية : ٩/١٣٣ .

ثم بكى، وبكى جلساؤه، ثم كتب إلى الوليد بن عبد الملك:أما بعد ! فقد كنت أرعى غنمك، أحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه، فجاء الأسد فبطش بالراعى ومزق المرعى كل ممزق، وقد نزل بمولاك ما نزل بأيوب الصابر، وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبده غفرانا لخطاياه، وتكفيراً لما حمل من ذنوبه، ثم كتب في آخر الكتاب:

إذا ما لقيت الله عني راضيا فان شفاء النفس فيما هنالك

فحسبى بقاء الله في كل ميت وحسبى حياة الله من كل

ثم دخل عليه أبو المنذر يعلى بن مخلد، فقال: كيف ترى مابك يا حجاج من غمرات الموت وسكراته؟ فقال: يا يعلى! غماً شديداً، وجهداً جهيداً، وألماً مضيضاً، ونزعاً حريضاً، وسفراً طويلاً، وزاداً قليلاً، فويلى ويلى إنْ لم يرحمنى الجبار، فقال له:يا حجاج! إنما يرحم الله من عباده الرحماء الكرماء أولى الرحمة والرأفة والتحنن والتعطف على عباده وخلقه،أشهد أنك قرين فرعون وهامان لسوء سيرتك، وترك ملتك، وتنكبك عن قصد بالحق، وسنن المحجة، وآثار الصالحين، ... فلم يحر جواباً، وتنفس الصعداء، وخنقته العبرة، ثم رفع رأسه ، فنظر إليه ، وأنشأ يقول:

رب إن العباد قد أيأسونى ورجائى بك الغداة عظيم[1]

---

(١) راجع: أمالى القالى:٣/١٧٤ وما بعدها ــ نشر: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م .

خطبته

الخطبة التي بين أيدينا هي أول خطبة له في أهل العراق ، وقد ألقاها - كما أشارت معظم المصادر التي روتها - في الجامع الكبير بمدينة الكوفة.

ونظراً لأهمية هذه الخطبة، وجودة أسلوبها وصياغتها، فقد تناقلتها العديد من كتب اللغة، والأدب، والتاريخ، وأولتها عناية واهتماماً كبيراً.

فقد ذكرها الجاحظ (٢٥٥هـ) في البيان والتبيين[١]، وذكرها ابن قتيبة (٢٧٦هـ) في الإمامة والسياسة[٢]، وفي عيون الأخبار[٣]، وذكرها المبرد (٢٨٥هـ) في الكامل[٤]، والطبري (٣١٠هـ) في تاريخه[٥]، وابن عبد ربه (٣٢٨هـ) في العقد الفريد[٦]، والمسعودي (٣٤٦هـ) في: مروج الذهب[٧]، وابن عساكر (٥٧١هـ) في تاريخ مدينة دمشق[٨]، وعز الدين بن الأثير (٦٣٠هـ)

---

(١) راجع:البيان والتبيين للجاحظ:٢٠١/٢ وما بعدها.تحقيق/موفق شهاب الدين ، ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت،ط:أولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م .

(٢) راجع:الإمامة والسياسة لابن قتيبة:٢٠٤/٢. تحقيق/خليل المنصور، ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط: أولى ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م.

(٣) راجع:عيون الأخبار لابن قتيبة:٢٦٥/٢ وما بعدها ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ بدون تاريخ .

(٤) راجع:الكامل في اللغة والأدب للمبرد:١/٢ وما بعدها.تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي، ط:دار الكتب العلمية ــ بيروت ط: أولى ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٩م.

(٥) راجع:تاريخ الطبري:٢٠٢/٧ وما بعدها.

(٦) راجع : العقد الفريد لابن عبد ربه : ١١٠/٤ وما بعدها . ط: دار إحياء التراث العربى ــ بيروت ، ط: أولى ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٦م .

(٧) راجع : مروج الذهب للمسعودي : ١٥٤/٣ وما بعدها .

(٨) راجع : تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر:١٣٤/١٢.

في: الكامل في التاريخ[١]، وابن خلكان (٦٨١هـ) في وفيات الأعيان[٢]، والنويري (٧٣٣هـ) في:نهاية الأرب في فنون العرب[٣]، وابن نباتة المصري (٧٦٨هـ) في سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون[٤]، وابن كثير (٧٧٤هـ) في البداية والنهاية[٥]، وابن خلدون (٨٠٨هـ) في تاريخه المسمى بـ: كتاب العبر في ديوان المبتدأ والخبر[٦]، والقلقشندى (٨٢١هـ) في: صبح الأعشى[٧]،وأبو الفتح الأبشيهي(٨٥٠هـ) في: المستطرف في كل فن مستظرف[٨]، وعبد الرحيم بن أحمد العباسى (٩٦٣هـ) في: معاهد التنصيص[٩]، كما ذكرها كثر من الأدباء والمؤرخين غير هؤلاء.

---

(١) راجع : الكامل في التاريخ لعز الدين بن الأثير : ٢٨٠/٢ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان:٢٣/٢ وما بعدها ــ تحقيق د/ يوسف على طويل ، د/ مريم قاسم طويل ــ ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط: أولى ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م .

(٣) راجع : نهاية الأرب في فنون العرب للنويري : ٢٠٧/٢١ وما بعدها ــ تحقيق / على محمد البجاوي،ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ــ ١٣٩٦هـ ــ ١٩٧٦م .

(٤) راجع:سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة المصري ص١٧٦ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ــ نشر:المكتبة العصرية ــ بيروت ــ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م .

(٥) راجع : البداية والنهاية لابن كثير : ٨/٩ وما بعدها .

(٦) راجع:تاريخ ابن خلدون : ٤٩/٣ .

(٧) راجع: صبح الأعشى للقلقشندى : ٢٦٣/١ ، تحقيق د/ يوسف على طويل ط: دار الفكر ــ بيروت ــ ط: أولى ١٩٨٧م .

(٨) راجع: المستطرف في كل فن مستظرف لأبي الفتح الأبشيهى: ١١٨/١ ، تحقيق د/ مفيد محمد قميحة ــ ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط: ثانية ١٩٨٦م.

(٩) راجع: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للشيخ/ عبد الرحيم بن أحمد العباسى:٣٤٣/١ وما بعدها تحقيق د/ محمد محيى الدين عبد الحميد نشر:عالم الكتب ــ بيروت ١٣٦٧هـ ــ ١٩٤٧م.

وإليك نص الخطبة كما ورد في كتاب: جمهرة خطب العرب للدكتور/ أحمد زكى صفوت : " حدَّث عبد الملك بن عُميرَ اللَّيثي قال: بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالٍ حسنةٍ، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه، إذ أتى آتٍ فقال: هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق، فإذا به قد دخل المسجد معتماً بعمامة غطى بها أكثر وجهه، متقلداً سيفاً، متنكباً قوساً[١]، يؤم المنبر، فقام الناس نحوه، حتى صعد المنبر، فمكث ساعة لا يتكلم، فقال الناس بعضهم لبعض: قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق، حتى قال عمير بن ضابيء البرجمي[٢]: ألا أحصبه لكم؟ فقالوا: أمهل حتى ننظر، فلما رأى عيون الناس إليه، حسر اللثام عن فيه، ونهض، فقال :

أَنا اِبنُ جَلا وَطَلاَّعُ الثَنايا مَتى أَضَعِ العِمامَةَ تَعرِفوني[٣]

ثم قال: يا أهل الكوفة، أما والله إنى لأحمل الشر بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإني لأرى أبصاراً طامحة، وأعناقاً متطاولة، ورؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق، ثم قال:

---

(١) متنكباً قوساً : يعنى واضعاً قوساً على منكبيه.

(٢) **هو عمير بن ضابئ البرجمى**، شاعر من سكان الكوفة،دخل على عثمان مقتولاً، فوطئ بطنه، فكسر ضلعين من أضلاعه، الكامل للمبرد:٢/٤، والأعلام:٥/٨٩.

(٣) البيت نسبه المبرد في الكامل ١٠٢/١ لسحيم بن الرياحى ، و " جلا " فعل ماض بمعنى: أوضح وكشف، وفي الكلام حذف، والتقدير:أنا ابن الذي جلا " راجع: الكتاب لسيبويه : ٢٨٨/٣ ، تعليق د/ جميل يعقوب بديع ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ط: أولى ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م" و" الثنايا " جمع ثنية، وهى الطريق في الجبل (لسان العرب:ثنا) وإنما أراد به أنه جلد يطلع الثنايا في ارتفاعها وصعوبتها و " أينعت " نضجت،مأخوذ من قولهم: ينع الثمر:إذا أدرك ونضج (اللسان:ينع).

هـذا أوانُ الشَّـد فاشـتدِّي زِيَـم قـد لَفهـا الليـلُ بسَـوَّاق حُطَـم

لـيس براعِـي إبـلٍ ولا غَـنم ولابجـزّار علـى ظَهَـر وَضَـم [١]

ثم قال:

قـد لَفّهـا الليـل بعُصْـلُبِيِّ أرْوَعَ خَـرَّاجٍ مـن الـدَّوِّيّ

مُهاجِر ليس بأعْرابيّ [٢]

ثم قال :

قـد شَمَّرتْ عـن ساقها فَشُدوا وجَـدَّت الحـرب بكـم فجـدوا

والقَـوْس فيهـا وَتـر عُـرُدُّ مثـلُ ذِراع البَكْـر أو أشَـدُّ

لابد مما ليس منه بد[٣]

---

(١) البيتان منسويان في كامل المبرد:٨/٢ ، للحطم القيسي ، ومنسوبان في اللسان للحطم ولرشُيد بن رميض العنزى (اللسان:زيم) وزيم:اسم فرس أو ناقة ، ومعناه: هذا وقت العدو فاستفرغي جهدك " راجع : تمثال الأمثال للشيبى ٥٨١/٢ تحقيق / أسعد ذبيان ط: دار المسيرة ــ بيروت ــ بدون تاريخ ". وحطم:الذي لا يبقى من السير شيئاً، ويقال: رجل حطم للذي يأتي على الزاد لشدة أكله، ويقال للنار التي لا تبقى:حطمة، راجع (اللسان : حطم): والوضم:كل شئ يوضع عليه اللحم من خشب أو بارية يوقى به من الأرض (اللسان : وضم).

(٢) البيتان غير منسوبين في جميع الكتب التى روت الخطبة، والعصلبى من كل شئ:الشديد الخلق العظيم،والقوى الصلب، والضمير في(لفها) للإبل، أى: جمعها الليل بسائق شديد، فضـربه مثلاً لنفسه ورعيته(اللسان :عصلب): والأروع:الذكى والدوى: الفلوات، واحدتها: دويـة،أراد أنه صاحب أسفار ورحل، فهو لا يزال يخرج من الفلوات، ويحتمل أن يكون المراد بـه أنـه بصير بالفلوات فلا يشتبه عليه شئ منها:(اللسان :دوا) وفي كامل المبرد (خراج من الدوى)، أى خراج من كل غماء شديدة(الكامل ٨/٢).

(٣) الأبيات منسوبة في جمهرة اللغة:٦٣٣ . " تحقيق د/رمزي منير بعلبكي . ط:دار العلم للملايين .ط: أولى ١٩٨٧م" لحنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلى والعُرُدُّ: الشديد من كل شـئ ، وشـبه الوتر بذراع البعير في توتره(اللسان:عرر) و (لابد مما ليس منه بد) أى: لا محالة (اللسـان، بدد).

إنّي واللّه يأهل العِراق! ومَعْدِنَ الشِّقاقْ والنِّفاق، ومَسَاوِيء الأخلاق، مَا يُقَعْقع لي بالشِّنان، ولا يُغْمَز جانبي كَتغْماز التّين، ولقد فُررتُ عِن ذكاء، وفُتشت عن تَجْربة، وجَرَيت إلى الغاية القُصْوى، وإنّ أميرَ المُؤمنين . أطَال اللّهُ بَقَاءَه . نثر كِنَانته بين يديه، فَعَجَم عِيدانَها، فَوَجدني أمرَّها عُوداً، وأَصْلَبَها مَكْسِراً ، فَرَماكم بي، لأنكَّمُ طالما أوضعتم في الفتن، واضْطّجْعتُمْ في مَرَاقِد الضلال ، وسنَنْتم سنَن الغَي، أَمَا واللّهِ لأَلْحونكم لَحْو العصا، ولأقرعنّكم قَرْع المَرْوَة، ولأعْصِبنّكم عَصْب السَّلَمة، ولأضْربنَكم ضَرْب غَرائب الإبل ، فإنكم لكأهل قَرْيَةٍ كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ، إني والله لا أعد إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فريت، فإياي وهذه الشفعات ، و الزَّرَافات والجماعات، وقالاً وقيلاً ، وما تقول؟ وفيم أنتم وذاك؟ أما والله لتستقيمن على طريق الحق، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة[١]، وأني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام، إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله[٢].

---

(١) **المهلب بن أبى صفرة:** هو ظالم بن سراق الأزدى العتكى، أبو سعيد، أمير بطاش، جواد، ولد في دبا، ونشأ بالبصرة، وولى إمارتها لمصعب بن عمير، وانتدب لقتال الأزارقة، فأقام يحاربهم تسعة عشر عاماً حتى انتصر عليهم ، ثم ولاه عبد الملك خراسان، ومات فيها سنة ٨٣هـ ، الأعلام ٣١٥/٧ .

(٢) راجع الخطبة في جمهرة خطب العرب د/ أحمد زكى صفوت ، نشر : المكتبة العلمية ـ بيروت، بدون تاريخ .

هذا هو نص الخطبة كما ذكرت في المرجع سالف الذكر ، ونشير إلى أن هناك اختلافاً في نصها زيادة ونقصاً بين المصادر الأصلية التي روتها ، وأن هذا النص الذي بين أيدينا عبارة عن تجميع لهذه النصوص وتأليف لها، مع المحافظة على هيكلها العام من حيث تسلسل الأفكار، وتلاحم الأجزاء، وهو أقرب ما يكون إلى نص المسعودي في: مروج الذهب[١]

والآن إلى التحليل البلاغي للخطبة، ثم بيان ما يمتاز به أسلوبها من خصائص وسمات.

(١) راجع نص الخطبة في مروج الذهب للمسعودي : ٣/١٥٤ : ١٥٦ .

المبحث الأول
التحليل البلاغى للخطبة
البداية والتعريف بالنفس
مع
التهديد والتخويف

يقول الحجاج بعد أن كشف عن وجهه ونهض معرفاً بنفسه مهدداً مخوفاً :

أَنا ابنُ جَلا وطَلاَّعُ الثَّنايا مَتى أَضَعِ العِمامةَ

يا أهل الكوفة ! أما والله إنى لأحمل الشر بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وأنى لأرى أبصاراً طامحة، وأعناقاً متطاولة، ورؤساً قد أينعت، وحان قطافها، وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق.

هذا أوَانُ الشدِّ فاشتدِّي زيم قد لفّها الليلُ بسواق حُطَمْ

ليس براعي إبلٍ ولا غَنم ولا بجزَار على ظَهر وَصَمْ

قد لَفّها الليل بعصْلبِيٍّ أرْوَعَ خَرَّاجٍ من الدَّوِّيّ

مُهاجِر ليس بأعْرابيّ

قد شَمَّرتْ عن ساقها وجَدَّت الحرب بكم فجدوا

والقَوْس فيها وَتر عُردُ مثلُ ذِراع البَكْر أو أشَدُّ

لابد مما ليس منه بد

فقد بدأ خطبته متمثلاً بقول سحيم الرياحى :

أَنـا ابْـنُ جَـلاَ وَطَـلاع الثنايـا مَتَـــى أَضَـــعِ العمامَـــةَ

وقد قاله يزهو بنفسه مفتخراً بانتسابه لأبيه الذي عرف بجلاء الأمور وكشفها ، ومفتخراً كذلك بصلابته ، وجلده ، وقدرته على اقتحام الأهوال، واجتياز الصعاب، وبأنه مشهور معروف .

وبدء الخطبة بهذا البيت ملائم لصنيع الحجاج حينما صعد المنبر متلثماً، ومكث ساعة لا يتكلم، ثم نهض، فبادر القوم به، ثم انتقل إلى موضوع الخطبة.

وقد أراد الحجاج بهذا البيت أن يكشف للقوم عن نفسه بعد أن كشف لهم عن وجهه، فأخبرهم من خلاله بأنه مشهور النسب، قوى، صلب، حنكته التجارب، وقوَّته الخبرة، أو كما يقول ابن عساكر -/- أنه مشمر ليس صاحب خفض ولا دعة[١].

ولا شك أن دخول الحجاج المسجد على هذه الهيئة، ثم سكوته فوق المنبر وقتاً أتاح للحاضرين أن يهرجوا ساخرين منه ، وهو يراقب ما يصنعون ، ثم نهوضه مبتدئاً بهذا البيت ، كل هذا من شأنه أن يبث في نفوس الحاضرين من الخوف والمهابة ما لا يمكن أن يتحقق بطريق آخر .

لقد نجح الحجاج بهذا الابتداء في إرغام الحضور من أهل لعراق على متابعة ما سيقوله بعدُ باهتمام ووعى ؛ لأنه ابتداء قوى ، كاشف عما تتمتع به هذه النفس الغامضة من حزم وعزم ، وفي نفس الوقت هو منبئ عن مضمون الخطبة التي جاءت بمثابة قطعة من الوعيد والتهديد .

---

(١) راجع : تاريخ دمشق لابن عساكر : ١٣٧/١٢ .

وهكذا يجب أن تكون ابتداءات الكلام حتى يتحقق لها الحسن والجودة، لأنها . كما يقول أستاذنا المرحوم د/ عبد العظيم المطعنى . أول ما يقرع السمع ، أو الرائد الذي يتقدم الركب ، والوجه المعبر عما يتمتع به الهيكل العام، أو العنوان الذي يوحى بما حفل به الموضوع من معان وصور(١).

وهكذا جاء ابتداء الحجاج بهذه الخطبة حتى وإن كان متمثلاً بكلام غيره ، إلا أنه قد استطاع من خلاله أن يكشف لأهل الكوفة عما تنطوي عليه نفسه ، وما سيكون عليه كلامه.

وبعد هذا المطلع ينادى الحجاج أهل الكوفة بما ينادى به البعيد مع أنهم ماثلون أمامه ، فيستخدم حرف النداء (يا) ليستعين به على زيادة اللفت والتنبيه ، ومد الصوت، وارتفاعه كى يملأ جنبات المسجد ، فيستحوذ على مجامع الأسماع والعقول، ويصل إلى حيث يريد:(يا أهل الكوفة !)

ونشير إلى أن في استخدام هذا الحرف في نداء القريب بدلاً من الهمزة أو أى، إشارة إلى أن ما سيأتى بعده من الأمور المهمة التى يجب التنبه لها، والاهتمام بشأنها ، يقول الزمخشرى / في نداء القريب به:" فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معني به جداً "(٢).

---

(١) راجع : البديع من المعانى والألفاظ لأستاذنا د/ عبد العظيم المطعنى ص٩٣ نشر : مكتبة وهبة ، ط: أولى ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م .

(٢) راجع : الكشاف للزمخشرى:٨٥/١ شرح وضبط / يوسف الحمادى نشر:مكتبة مصر . الفجالة . بدون تاريخ .

وبعد التنبيه بالنداء يأتى تنبيه آخر، لكنه جاء في هذه المرة بـ(أما) الاستفتاحية،وهى حرف ويستفتح الكلام به لإيقاظ المتلقى، ولفته إلى ما سيأتى بعدها، والفرق بينها وبين (ألا) أنها مختصة بالدخول على القسم، ولا يخفى أن هذين الحرفين يفيدان بجانب التنبيه التأكيد والتحقيق، يقول الزجاج / عنهما:" ألا مفتوحة مخففة تستعمل في افتتاح الكلام للتأكيد والتنبيه كقوله تعالى ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُم﴾[١] وكذلك " أما " إلا أنها لا تقع إلا في افتتاح قسم "[٢].

ثم يأتى الخبر مؤكداً بالقسم وبـ(إن) وباللام الداخلة على خبرها، وكان قد صدره بـ (أما) وهى مؤكدة أيضاً:(**أما والله إنى لأحمل الشر بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله**) ليجتمع فيه أقوى طرق التأكيد مع التنبيه، فتصل به إلى أقصى غايات الإثبات واللفت، مع علو نبرة التخويف والتهديد، وانعكاس زهو النفس، وهى تكشف للآخرين عما تتمتع به من جلادة وصلابة.

والقسم هنا بلفظ الجلالة الأعظم؛ ليلقى بظلاله على المقسم عليه، فيكسبه تعظيماً وتفخيماً.

ومن بلاغة الحجاج وقدرته على صياغة الكلام صياغة قوية مؤثرة، أن جسد الشر في هذا السياق، وأظهره في صورة مرئية، وأجرى عليه أفعالاً لا تقع إلا على المحسوسات، وهى:الحَمْلُ، والحَذْوُ، والمجُازاة، وذلك بطريق الاستعارة المكنية.

---

(١) سورة هود من الآية : ٦٨ .

(٢) راجع : حروف المعاني للزجاجي : ١١/١ تحقيق : د/علي توفيق الحمد ، ط: مؤسسة الرسالة ــ بيروت ، ط: أولى ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م .

حيث صوره ـ وهو أمر معنوى ـ في صورة دابة يضع عليها حملها، ليوهنها، ويضعفها، حتى يسهل قيادها .

ثم صوره مرة أخرى في صورة إنسان يقيس له من الجزاء والعقاب على قدر نعله، يقال: حذا النعل حَذْوَةً وحِذاءً: إذا قدرها وقطعها(١).

وأخيراً صوره في صورة إنسان يجازيه على ما ارتكب من المخالفات بمثل فعله.

ولا شك في أن تجسيد الشر وتشخيصه في سياق الحديث عن المجازاة عليه، وإخراجه من كونه أمراً معنوياً لا يرى ،إلى كونه شيئاً مشاهداً تجرى عليه هذه الأحداث، أقوى وأبلغ في التخويف والترهيب من قوله: إنى لأجازى صاحب الشر بالشر، أو بمثل صنيعه، أو غير ذلك من الأساليب الحقيقية التى يمكن أن يؤدى بها هذا المعنى؛ لأن التجسيد يجعل المخاطبين أكثر استيعاباً لهذه المجازاة، ويحرك خيالهم لتصور ما يمكن أن تصل إليه المساواة بين الفعل والجزاء عند الحجاج، وكأنهم ينظرون إلى الشر وقد صار إنساناً يحمل عليه بمثل فعله ، ويقدر له بمثل حذائه ، ويجازى بمثل صنيعه.

والتعبير بصيغة المضارعة:(أحمل . أحذو . أجزى) مجردة من السين وسوف فيه تخليص للمضارع لزمن الحال، وهذه الصياغة ملائمة لما أراده الحجاج من بيان لحاله التى جبل عليها، وهى المجازاة على السوء بالمماثلة؛لأن صيغة المضارعة تقتضى تجدد هذه الأحداث فيه واستمرارها، ومزاولته لها وقتاً بعد وقت ، يقول الشيخ عبد القاهر / في الفرق بين إثبات الشئ بالاسم وإثباته بالفعل:" فالذي يليه من فروقِ الخبرِ هو الفرقُ

---

(١) لسان العرب (حذا) .

بينَ الإثباتِ إذا كان بالاسم وبينه إذا كانَ بالفعلِ، وهو فرقٌ لطيفٌ تَمسُّ الحاجةُ في علمِ البلاغة إليه، وبيانُه أنَّ موضوعَ الاسم على أن يُثْبَتَ به المعنى للشيءِ من غيرِ أن يَقتَضي تجدُّده شيئاً بعدَ شيء، وأما الفعلُ فموضوعُه على أنه يقتضي تجدُّدَ المعنى المثبتِ به شيئاً بعدَ شيء "(١).

والمتأمل في الجمل الثلاث:(أحمل الشر بحمله) و (أحذوه بنعله) و (أجزيه بمثله) يجدها تدور كلها في فلك معنى واحد، وهو المجازاة بالمثل، فالعطف هنا شبيه بعطف المترادفات بين الألفاظ المفردة،زيادة في التأكيد والتقرير، والمقام هنا مقام تهديد ووعيد، فهو يتطلب هذه الكيفية من البسط والتفصيل.

ونلحظ في هذا العطف المتوالى تدرج الأسلوب تدرجاً تصاعديا في بيان المعنى، حيث بدأ بجملة :(أحمل الشر بحمله) ثم عطف عليها جملة: (وأخذوه بنعله) ثم ختم بالجملة الأكثر وضوحاً : (وأجزيه بمثله) حيث صرح فيها بالمقصود وهو المجازاة بالمثل .

والعطف هنا للتوسط بين الكمالين ، حيث الاتحاد بين الجمل في الخبرية وفي المسند إليه ، والمناسبة واضحة بين الأفعال المسندة في كل .

وتواطؤ فواصل الجمل الثلاث على روى واحد حقق لها سجعاً أكسبها إيقاعاً صوتياً، ونغمة موسيقية ، تجذب الانتباه ، وتستصغى الآذان .

والسجع بين الجملة الأولى والثانية من النوع المطرف ؛ لأن الجملتين مختلفتان في الوزن ، متحدتان في الروى .

---

(١) راجع: دلائل الإعجاز للشيخ/عبد القاهر الجرجانى ص:١٣٣ تصحيح وتعليق الشيخ / محمد رشيد رضا ــ ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ بدون تاريخ.

أما السجع بين الجملة الثانية والثالثة فهو من النوع المرصع ، لأن الجملتين متحدتان وزناً وتقفية[١] .

وبعد هذا الخبر الكاشف عن خصائص النفس في مقابلتها الأشرار بالجزاء المماثل ، يخبرهم الحجاج . مهدداً متوعداً . بأنه يرى بينهم أشراراً يستحقون العقاب العاجل لما بدا عليهم من أمارات الالتواء والإعراض ، فيقول : **(وإني لأري أبصاراً طامحة، وأعناقاً متطاولة، ورءوساً قد أينعت، وحان قطافها، وإني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق)** .

ويعطف هذا الخبر على ما قبله بالواو ، ويبدأه ـ كما بدأ سابقه ـ مؤكداً بـ (إن) واللام الداخلة على خبرها ، ويستعين داخل الفقرة بمؤكدات أخرى كـ (قد) ، وأسلوب الاستعارة ، وتوكيد جملة الحال بـ(إن) أيضاً : (وإنى لصاحبها) ثم التوكيد بـ(كأن) .

وتأكيد الخبر في هذا الجزء من الخطبة كتأكيده في الجزء السابق، وتأكيده في باقى أجزائها ، جاء متدفقاً من نفس قوية ، ثائرة ، حريصة على أن يخرج كلامها مخرج الحقائق الثابتة التى لا تدفع ، متوقعه لكلامها أن يقابل بعاصفة من الإنكار والتبرُّم .

وليس أمر التأكيد فيه راجعاً لمراعاة أحوال المخاطبين الشاكين ، أو المنكرين ؛ لأن المقام مقام خطابى يتطلب من صاحبه أن يخرج كلامه في صورة رصينة تقنع المخاطبين ، وتسكن ما يمكن أن يحوم في نفوسهم من شك أو إنكار .

---

(١) راجع في أنواع السجع الإيضاح للخطيب القزوينى : ١٠٦/٦ وما بعدها . تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجى ط: دار الجيل ــ بيروت ــ ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٣م .

وقد أحسن شيوخنا من علماء البلاغة المحدثين حينما وسعوا دائرة التأكيد ، وأدخلوا فيها مراعاة حال المتكلم لنفسه ومدى انفعاله بالخبر ، وأيضاً مراعاة حال الخبر نفسه ومدى أهميته ومكانته ، بدلا من تضييقها وإغلاقها على مراعاة أحوال المخاطبين فحسب ، كما فعل السكاكى والخطيب ومن حذا حذوهم من شراح التلخيص وغيرهم من قدامى البلاغيين رحمهم الله)[١] .

وإذا ما تركنا قضية التوكيد وتأملنا هذا الجزء من الخطبة ، وجدناه قد اشتمل على العديد من الفنون البلاغية التى اتحدت مع التوكيد في إخراج الكلام قوياً مؤثراً.

فقد اشتمل على أسلوب الكناية في قوله : (وإني لأري أبصاراً طامحة، وأعناقاً متطاولة) حيث كنى بذلك عما يراه فيهم من كبرياء ، وتعجرف ، واستنكار لأن يكون مثله والياً عليهم ، والكناية هنا كناية عن صفة ، وإن كان يصح حمل الأسلوب فيها على الحقيقة بأن يكون قد رأى أبصارهم طامحة ، وأعناقهم متطاولة إليه أثناء الخطبة .

---

(١) راجع في قضية التوكيد : مفتاح العلوم للسكاكى ص٧٤ ط:دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ بدون تاريخ ، والإيضاح للخطيب ٦٩/١ وما بعدها ، وشروح التلخيص : ٢٠٢/١ وما بعدها . نشر : دار الإرشاد الإسلامي ــ بيروت ــ بدون تاريخ ، وخصائص التراكيب لأستاذنا د/ محمد محمد أبو موسى ص٩١ وما بعدها ، نشر : مكتبة وهبة ــ القاهرة ط/خامسة ١٤٢١هـ ــ ٢٠٠٠م ، ودلالات التراكيب لأستاذنا د/ محمد محمد أبوموسى ص٧١ وما بعدها ، نشر: مكتبة وهبة ــ ط: ثانية ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٧م ، الحركة الأسلوبية لأستاذنا د/ عبد الرازق محمد فضل ص١٦ مطبعة التركى ، بدون تاريخ ، من أسرار التعبير بالحروف المشبهة بالفعل " إن وأخواتها" في القرآن الكريم لأستاذنا د/ هاشم محمد هاشم ص٤٣ وما بعدها. ط: أولى ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م .

كما اشتمل على أسلوب الاستعارة في قوله : (ورءوساً قد أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها) حيث شبه الرؤوس بثمار قد نضجت وأوشكت أن تسقط ، ثم حذف المشبه به ، ورمز إليه بشئ من لوازمه ، وهو الإيناع ، وأثبت هذا اللازم للمشبه المذكور ، بطريق الاستعارة المكنية والاستعارة التخييلية ، ثم رشح الاستعارة بقوله : (وحان قطافها وإني لصاحبها) .

والأسلوب يوحى بقرب القطع ، وسهولة المأخذ ، وتمكن الحجاج منهم تمكن صاحب البستان مما نضج من ثماره ، وهذا من شأنه أن يبث في نفوس المخاطبين مزيداً من التهديد والترويع .

ونشير إلى أن هذا الأسلوب ـــــ أعنى تشبيه الرؤوس بالثمار اليانعة بطريق الاستعارة المكنية ـــ يعد من ابتكارات الحجاج الأسلوبية التى لم يسبق إليها ، وهو أسلوب قوى رصين ، يدل دلالة واضحة على مدى ما كان يتمتع به خيال الحجاج من خصوبة وقدرة على تحويل الأشياء من طبيعتها التي فطرت عليها ، إلى طبائع أخرى ليست لها كما يعكس لنا شيئاً من الخصائص النفسية التي كانت تتصف بها شخصية الحجاج، تلك الشخصية التي تبدو لنا من خلال هذا الأسلوب في غاية الازدراء والتهكم بالآخرين ، وكأن المخالفين قد فقدوا في نظره خصائصهم الإنسانية ، وتحولوا إلى فاكهة تقطف وتؤكل.

وتأمل كيف نكر الحجاج المفاعيل في الجمل الثلاث : (أبصاراً ـ أعناقاً ـ رؤوساً) تنكيراً يوحى بالكثرة مع التحقير والازدراء ، ويتناسب مع غلظة الحجاج وحرصه على إذلال القوم ، وإصغارهم ، وبث روح الخوف في نفوسهم حتى لا يتمردوا.

وقد تلاقت صيغة الجمع في هذه المفاعيل مع صيغة التنكير لتدلا على الكثرة الكاثرة من الأبصار الطامحة ، والأعناق المتطاولة ، والرؤوس اليانعة، التي يراها الحجاج داخل المسجد.

وتأمل كيف وصف المفعولين : الأول والثاني بالاسم : (طامحة . متطاولة) ليدل على ثبوت هذين الوصفين لأبصار القوم وأعناقهم حال رؤيته إياها أثناء الخطبة .

بينما وصف المفعول الثالث بالجملة الفعلية : (قد أينعت وحان وقت قطافها) ليؤكد إيناع هذه الرؤوس وتمامه فيما مضى، مما يستوجب قطعها قبل أن تتلف .

ومن براعة الحجاج في اختيار الكلمات أن اختار الأوصاف المناسبة لكل موصوف ، حيث وصف الأبصار بالطمح ، وهو : الشخوص والرمى إلى الشئ[١] .

وهذا الوصف مناسب لحال القوم، وقد شخصوا إليه أبصارهم محملقين فيه قبل وأثناء الخطبة .

ثم وصف الأعناق بالتطاول ، ومعناه : التطاول في القيام مع رفع الرأس ومد القوام للنظر إلى الشئ ، أو مأخوذ من استطالة الرجل على الناس إذا هو رفع رأسه ، ورأى أن له عليهم فضلاً في القدر[٢]

وهذا الوصف مناسب بمعناه الأول لحالهم وقد مدوا أعناقهم ، ورفعوا رؤوسهم ، وهم ينظرون إليه ، ومناسب بمعناه الثاني لاستهانتهم به في بادئ الأمر ، وهمهم بحصبه ، وتقبيحهم بنى أمية إذ ولوه عليهم .

---

(١) اللسان : (طمح) .

(٢) اللسان : (طول) .

ثم وصف الرؤوس بالإيناع لأنها أشبه بالثمار في الاستدارة ، وهكذا جاء وصف الحجاج مناسباً لموصوفه في الجمل الثلاث .

ولم تقف براعة الحجاج هنا عند المناسبة بين الوصف والموصوف فحسب، وإنما نراها قد بلغت ذروتها في الجمع بين الموصوفات : (الأبصار . الأعناق . والرؤوس) إذ الجمع بين هذه الأعضاء في سياق واحد يعد من أروع صور التناسب ومراعاة الأشباه والنظائر ، وذلك لتقارب هذه الأعضاء بعضها من بعض ، فالأعناق حاملة للرؤوس ، والأبصار جزء من هذه الرؤوس .

ولا يخفى أن هذه الأعضاء التي ذكرها الحجاج هي كل أعضاء الإنسان التى يبدو عليها أمارات القبول أو الإعراض ؛ لذلك فإن ذكرها مجتمعة في هذا السياق يعد من حسن التقسيم .

هذا وإن كان الحجاج قد أجاد في صياغة هذه الفقرة صياغة قوية وجيدة من الناحية الفنية إلا أنه يؤخذ عليه في هذا الجزء من الخطبة تلك الاستهانة والسخرية بالحضور من أهل العراق ، وأي قوم يرضون بأن يشبهوا بالثمار الناضجة التي يوشك أن تسقط أو تقطف ؟.

وقوله : (وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى تترقرق) كناية عن قرب قطع هذه الأعناق والرؤوس ، وقد قوى هذا المعنى التعبير بصيغة المضارعة : (أنظر . تترقرق) وكأنه لا ينظر أثناء خطبته إلى وجوههم ، وإنما ينظر إلى دماء هذه الوجوه التي أوشكت أن تفور .

وفي قوله : (تترقرق) استعارة بالكناية ، حيث شبه الدماء بالماء ، ثم حذف المشبه به وذكر لازمه (تترقرق) وأسنده لضمير الدماء على طريقة الاستعارة المكنية والتخييلية .

وهـذا تصـوير جيـد رائـع ، يكشـف لنـا عمـا تنطـوى عليـه الـنفس الحجاجية من اشتهاء وحب لإراقة الدماء ، وكأن دماء وجوههم تداعبه مداعبة الماء الصافى للإنسان الصادي .

ومجـئ كلمـة (الـدماء) بصـيغة الجمـع معرفـة بـلام العهـد جعـل الأسلوب أشد تخويفا وترهيباً .

وبعـد هـذا الجـزء مـن الخطبـة يسـوق الحجـاج أبياتـاً شـعرية عنيفـة في معناهـا ، شـديدة في ألفاظهـا ، قويـة في تأثيرهـا ؛ ليضـفى علـى الخطبـة مزيداً من التخويف والترويع .

العودة إلى الحديث عن النفس مرة أخرى

وبعد هذه الأبيات يعود الحجاج للحديث عن نفسه مرة أخرى ، ليظهر لهم ما خفى عنهم من خصائص هذه النفس ، وما تتسم به من سلاطة لسان ، ورباطة جأش ، يقول : (**إني والله يا أهل العراق ، ومعدن الشقاق والنفاق ، ومساوئ الأخلاق ما يقعقع لى بالشنان ، ولا يغمز جانبي كتغماز التين**) .

ويحيط هذا الجزء بإطار توكيدى رصين ، حيث أكده بـ(إنّ) والقسم المعترض بين اسمها وخبرها ، ثم نادى أهل العراق نداء عاماً ، حيث أضافهم إلى العراق ، وكان قد أضافهم إلى الكوفة في الجزء السابق ، إشارة إلى أن ما سيأتى بعد النداء من الأهمية بحيث يجب أن يعلمه الجميع ، وليس أهل الكوفة فحسب ؛ ولذلك استخدم حرف النداء (يا) بدلاً من (أى) أو الهمزة .

وحرصاً على إذلال القوم ، وكسر شوكتهم ، وبث الرعب في نفوسهم، وصف الحجاج أهل العراق في هذا الجزء من الخطبة بأخس الأوصاف وأقبح النعوت ، حيث جعلهم معدناً أصيلاً للشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق .

وتأمل المغايرة الأسلوبية بين هذا الجزء ومطلع الخطبة ، حيث بدأ هناك بالنداء ، ثم أعقبه بالتنبيه بـ (أما) ثم أعقب التنبيه بالقسم ، ثم ساق الخبر مصدراً بـ (إنّ) : (**يا أهل الكوفة أما والله إنى لأحمل الشر بحمله**) أما هنا فقد بدأ بالتوكيد ، ثم فصل بين اسم (إنّ) وخبرها بالقسم ، ثم أتى بالنداء : (**إنى والله يا أهل العراق**) وذلك لأن المطلع هو بداية الخطبة ، والبداية تقتضى مزيداً من التنبيه واللفت ؛ لأنها أول ما يقرع سمع المخاطبين ؛ فلزم لذلك تقديم النداء، وهو وسيلة قوية من

وسائل التنبيه ، ثم إتباعه بوسيلة تنبيهية أخرى ؛ ليجمع المطلع بين طريقين متتاليين للتنبيه ، فيصبح أكثر لفتاً للمخاطبين ، وتنبيهاً لهم لما سيأتي بعده ، وهذه طريقة ناجحة من طرق الاستحواذ على العقول والقلوب قبل سوق الأخبار المهمة إليها .

أما هنا فهم مهيأون لاستقبال الخبر وسماع الخطبة إلى آخرها ، خصوصاً بعد سماعهم الجزء السابق منها ، والذي احتشد فيه من أساليب التنبيه ما لا يدع مجالاً للغفلة ، وربما كان النداء في هذا الجزء مجرد وسيلة لذكر هذه الصفات الذميمة التى توالت بطريق العطف .

ولعلك تلحظ معى اشتمال هذه الفقرة على بعض أساليب الإطناب ، كالاعتراض بالقسم والنداء بين اسم (إن) وخبرها، والذي زاد الأسلوب تقوية وتوكيداً، وزاد الخبر عناية واهتماماً .

وكذكر العام بعد الخاص في عطف (مساوئ الأخلاق) على (معدن الشقاق والنفاق) زيادة حرص من الحجاج على استقصاء المعانى وإخراجها في صورة قوية مؤكدة دالة على الإحاطة والشمول.

ولا يخفى أن ذكر العام بعد الخاص يعد من أساليب التوكيد ؛ لأن المعنى يذكر معه مرتين ، فهو بمثابة التكرار .

كما اشتملت هذه الفقرة على السجع المتوازي[١] وهذا ما جعلها أكثر لفتاً، وتأثيراً، واستحواذاً على الأسماع .

ويأتى خبر (إن) : (ما يقعقع لي بالشنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التين) مكوناً من جملتين : الأولى تصدرها النفى بـ (ما) التى تخلص

---

(١) **السجع المتوازي** : هو أن تتفق الفاصلتان في التقفية والوزن ويكون ما في إحدى القرينتين مخالفاً في الوزن لما يقابله. راجع الإيضاح : ٦ / ١٠٧ .

المضارع بعدها لزمن الحال ـ إلا إذا دلت قرينة على خلافه ـ والثانية تصدرها النفى بـ (لا) التى تخلصه للاستقبال ، لينفى عن نفسه هذين الحدثين في الحال والمآل ، ويضع المخاطبين في دائرة محكمة من التيئيس والتقنيط .

ومن جودة الصياغة هنا أن بنى الحجاج الفعلين : (يُقِعقع ، ويُغمز) على صيغة المجهول بعد حذف الفاعل ، وهذا الأسلوب يجعل الكلام أكثر تركيزاً على الحدث وإثباته منفياً دون النظر إلى فاعله ، وكأنه لا يوجد فاعل أصلاً يستطيع إحداث هذين الحدثين معه .

وقوله : (ما يقعقع لي بالشنان) استعارة تمثيلية أوحت بالثبات ورباطة الجأش ، وأصل القعقعة : حكاية أصوات السلاح، والترسة، والجلود اليابسة، والحجارة، والرعد، والبكرة، والحلى، ونحوها ، وفي المثل : فلان لا يقعقع له بالشنان : أى لا يخدع ولا يروع ، وأصله من تحريك الجلد اليابس للبعير ليفزع ، ويضرب للرجل الشرس الصعب الذي لا يفزع بالوعيد، والمعنى : لست ممن يروع بالأباطيل ، ويقرع بالتخيلات[١].

فقد شبه حالهم في عدم النيل منه أو إضعافه بما سيقابلونه به من تمرد وعصيان ، بحال من يريد أن يخوفه بقعقعة الشن ، ثم حذف الحالة الأولى ، واستعار لها الحالة الثانية .

---

(١) راجع : اللسان (قعقع) ، راجع : جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى ٤١٢/٢ تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم . ط: دار الفكر ط: ثانية ١٩٨٨م ، وراجع المستقصى في أمثال العرب للزمخشرى: ٢٧٤/٢. ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : ثانية ١٩٨٧م ، ومجمع الأمثال للنيسابورى:٢٦١/٢ تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد ــ ط: دار المعرفة . بيروت ــ بدون تاريخ.

وهذه الاستعارة ملائمة لسياق الخطبة تمام الملاءمة ، ثم هى كاشفة عن شخصية الحجاج وما تتمتع به من ثبات وثقة بالنفس ، فهو لا يرى ما يمكن أن يفعله القوم معه من شق عصا الطاعة ومحاولة إعاقته عما يريد ، إلا بمثابة تحريك الشن لإفزاع الإبل أو الطير أو غيرهما ، وهذا في غاية الازدراء والتهوين من شأن الآخرين .

والغمز : العصر باليد[١]، ومنه قول الشاعر :

وَكُنتُ إذا غَمَزتُ قَناةَ قَومٍ كَسَرتُ كعوبها أَو تَستَقيم[٢]

وقول الحجاج : (ولا يغمز جانبى) كناية عن المضى في الأمر ، بمعنى أنه لا يلين جانبه لمن يحاول التلطف معه ليثنيه عما يريد ، وهى كناية رمزية [٣]، أكدها الحجاج بأسلوب التشبيه : (كتغماز التين) والذي بين مقدار حال المشبه ، أى : لا يغمز جانبى كتغماز التين في سهولة العصر، والقبض عليه باليد ، واختار (تغماز التين) ليكون مشبهاً به ليخرج المعنى في صورة محسوسة يلمسها المخاطبون .

وقد أدت أساليب الاستعارة التمثيلية، والكناية، والتشبيه المرتكز عليها في هذا السياق دوراً مهماً في الكشف عما تنطوى عليه نفس الحجاج من ثبات، وصلابة ، ومضى ، وإقدام ، وصارت هذه الأساليب الثلاث بمثابة القطب الذي دار عليه الكلام في الخطبة كلها حول إثبات هذه الصفات ،

---

(١) راجع : اللسان (غمز) .

(٢) البيت منسوب في كتاب سيبويه لزياد بن الأعجم ، ومنسوب له كذلك في الأغاني لأبى الفرج الأصفهانى ١٠٣/١٣ تحقيق / سمير جابر ط: دار الفكر ــ بيروت ــ ط: ثانية ــ بدون تاريخ .

(٣) **الكناية الرمزية** : هى الكناية القريبة التى تقل فيها الوسائط مع خفاء المعنى . راجع : الإيضاح: ١٧٧/٥ .

فهو شجاع مقدام ؛ لأنه لا يخاف من قعقعة الشنان ، وقوى صلب؛ لأنه لا يعصر كما يعصر التين ، وهذا هو شأن هذه الأساليب كما يقول عبدالقاهر /: " كأن جل محاسن الكلام - إن لم نقل كلها - متفرعة عنها ، وراجعة إليها ، وكأنها أقطاب تدور عليها المعانى في متصرفاتها ، وأقطار تحيط بها من جهاتها " (١).

ولا يخفى أن العطف بين الجملتين هنا للتوسط بين الكمالين ، حيث الاتحاد بين الجملتين قائم في الخبرية والمسند إليه ، والمناسبة بينهما واضحة وقوية .

وبين (يغمز) و (تغماز) جناس اشتقاق زاد المعنى تقوية وتأكيداً .

---

(١) راجع : أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر ص٢٧ تحقيق / محمود محمد شاكر ــ نشر دار المدنى بجده ــ ط: أولى ١٤١٢هـ ــ ١٩٩١م .

الحديث عن كيفية اختياره والياً على العراق وسبب هذا الاختيار

وبعد الحديث عن النفس ينتقل الحجاج بأهل العراق إلى الحديث عن كيفية اختياره والياً عليهم ، وسبب هذا الاختيار ، ويبين لهم أن اختياره جاء بعد تفقد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لرجاله ، وطول النظر في أحوالهم ، وما يتصف به كل واحد منهم ، فوجده أصلبهم وأعنفهم ، فولاه عليهم ؛ لأنهم أهل فتن وضلال وغى ، يقول : (**ولقد فُرِرتُ عِن ذكاء، وفُتشت عن تَجْربة، وجريت إلى الغاية القُصْوى، وإنّ أميرَ المُؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ نثر كِنَانته بين يديه، فَعَجَم عِيدانَها، فَوَجدني أمرَّها عُوداً، وأصلها مَكْسِراً، فَرَماكم بي، لأنكم طالما أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي**) .

ويبدأ هذه الفقرة بالتوكيد بأسلوب القسم المحذوف ، والتقدير : والله لقد فررت عن ذكاء فحذف المقسم به إيجازاً واختصاراً ، وأبقى اللام الواقعة في صدر الجواب توكيداً ودلالة على القسم المحذوف ، وأتى بـ (قد) الداخلة على الفعل الماضى (فررت) زيادة في التأكيد والتحقيق ، ودفعاً لأدنى شائبة تجوم حول الخبر شكاً أو تكذيباً .

و(فررت) مأخوذ من قولهم : فر الدابة يفرُّها : إذا كشف عن أسنانها لينظر ما سنها[١] ، والذكاء ـ كما قال المبرد / على ضربين : أحدهما تمام السن ، والآخر : حدة القلب[٢] ، ولا يبعد أن يكون الحجاج قد أراد المعنيين معاً ، فيكون المراد وصف عبد الملك بن مروان في اختياره إياه

---

(١) راجع : لسان العرب (فرر) .

(٢) راجع : الكامل للمبرد : ٩/٢ .

بالحنكة وحدة القلب .

والأسلوب من قبيل الاستعارة التمثيلية ، حيث شبه حالة عبد الملك، وهو يبحث في رجاله عن والٍ كفءٍ للعراق ، بحالة من يفر الدواب ليعرف سنها فيختار المناسب منها ، ثم حذف الحالة الأولى ، واستعار لها الحالة الثانية .

ولا يوجد ثم أسلوب آخر أحسن من هذا الأسلوب في تصوير مدى الدقة والتأنى في اختيار الحجاج والياً على العراق ، مع تجسيد المعنى وإخراجه إلى حيز الوجود لتراه عين كل مخاطب .

والصورة - وإن كان يغلب عليها الطابع البدوى - مألوفة منتزعة من واقع حياة المخاطبين ، فهم أكثر إدراكاً لها ومشاهدة ، وهى أشد من غيرها إيضاحاً وتقريراً .

وقوله : (وفتشت عن تجربة) كناية عن أن اختياره جاء بعد طول بحث وتنقيب ، وهو مأخوذ من الفتش والتفتيش : بمعنى الطلب والبحث[١] .

وحذف الفاعل وبناء الفعلين للمجهول فيهما للعلم بالفاعل ، والتركيز على الحدث لأنه الأهم ؛ وقد أحدث هذا الحذف والبناء دقة وإيجازاً ، للصياغة ، وجعلها تصل إلى المطلوب من أقرب طريق .

وقد أدى التنكير في (ذكاء وتجربة) دوراً مهماً في تعظيم وتفخيم هذين الوصفين اللذين يكون بهما الاختيار عند المفاضلة .

و(الغاية) قصبة تنصب في الموضع الذي يحدد مسافة السباق ليأخذها السابق[٢].

---

(١) راجع : لسان العرب (فتش) .

(٢) راجع : البيان والتبيين : ٢٠٢/٢ ، واللسان : (غيا) .

فقوله : (وجريت إلى الغاية القصوى) استعارة تمثيلية ، حيث شبه حاله وقد فاز من بين أقرانه بولاية العراق ، بحال من تقدم منافسيه في حلبة السباق .

والأسلوب يكشف لنا عن حالة الحجاج النفسية تجاه اختياره دون غيره والياً على العراق ، فقد بدا من خلاله منتشياً فخوراً ، يرى أن هذا الاختيار بمثابة تفوق له على كل من دخل معه في مفاضلة عبد الملك .

ونلحظ هنا تحولاً من صيغة المبنى للمجهول إلى صيغة المبنى للمعلوم ، وكأن جريه ووصوله إلى هذه الغاية كان بدافع نفسى، واجتهاد ذاتى، ولم يكن بفعل فاعل.

وعطف الجمل الثلاث لاتحادها في الخبرية وفي المسند إليه ، مع وجود المناسبة بينهما ، وهذا ما يسمى بالتوسط بين الكمالين .

وصياغة الأفعال : (فررت . فتشت . جريت) على صيغة المضى مناسبة لوقوع هذه الأحداث قبل مجئ الحجاج إلى العراق .

وبعد تقرير هذه المعانى أراد الحجاج أن يزيدها بياناً وإيضاحاً فاستأنف قائلاً : (وإن أمير المؤمنين . أطال الله بقاءه . نثر كنانته بين يديه ...)

فأكد الخبر بـ (إن) واكتفى بذكر عبد الملك بلقبه، ولم يقرن بين الاسم واللقب إيجازاً واختصاراً وتركيزاً على الوصف الذي يملأ القلوب مهابة ورهبة .

ثم اعترض بين اسم (إن) وخبرها بجملة : (أطال الله بقاءه) وهى جملة دعائية يكثر دورانها على ألسنة العامة والخاصة ، والغرض منها الدعاء للمتحدث عنه بطول العمر ، ولا يخفى أن الاعتراض لون من ألوان

الإطناب يؤتى به لحسن الإفادة، فيكون ـ كما يقول الخطيب / ـ مثل الحسنة تأتيك من حيث لا ترتقبها[١].

ووجه حسنه هنا أنه أظهر ولاء الحجاج لأمير المؤمنين أمام جمع الحاضرين ، وكشف عن سعادته باختياره والياً عليهم ، وهذا مما يزيد من خشيته ومهابته.

ثم أتى بخبر (إن) جملة فعلية ، فعلها ماض ، ليحكى ما حدث في الماضى : (نثر كنانته بين يديه) وهى استعارة تمثيلية رائعة، انتقل بها الحجاج إلى عالم الرماية والحروب ، حيث شبه أمير المؤمنين حال اختياره من بين رجاله ، بحال من نثر كنانته ، وأخرج ما بها من سهام ليختار أحسنها ، ثم حذف الحالة الأولى ، واستعار لها الحالة الثانية، على طريقة الاستعارة التمثيلية ، ثم رشح الاستعارة بقوله : (فَعَجَم عِيدانَها، فَوَجدني أمرَّها عُوداً، وأصلبها مَكْسِراً) .

وهذا الأسلوب موضح لأسلوب الاستعارة والكناية السابقين: (لقد فُرِرْتُ عِن ذكاء، وفُتشت عن تَجْربة) وهو أسلوب كاشف استطاع الحجاج من خلاله أن يرينا عبد الملك بن مروان، وقد أمسك بكنانته ، ثم كبها وأخرج سهامها ، ثم أخذ يتأمل هذه السهام سهماً سهماً ، وعوداً عوداً ، ثم اختار هذا العود . وهو الحجاج . فرمى به أهل العراق ، وهو واثق بأنه سيدرك الهدف ، ويحقق المراد .

ولست مع د/ عبد الحميد هنداوى في حمله الكلام على أسلوب الاستعارة التصريحية ، حيث قال : " قوله : نثر كنانته : استعارة

---

(١) راجع : الإيضاح٣/٢١٨.

تصريحية ، حيث شبه عدته من الأمراء والجند بالكنانة ، كما شبههم بالسهام"[١] .

وغير خاف أن في هذا تجزيئاً للصورة الكلية التي يحققها حمل الأسلوب على الاستعارة التمثيلية ، وقد نوّه الإمام عبد القاهر / بضرورة حمل مثل هذه الأساليب على الاستعارة التمثيلية ، للمحافظة على بنية النصوص وحمايتها من الهدم والتجزئ ، يقول / : " والذي جلب التخليط والخبط الذي تراه في هذا الفن ، أن الفرق بين أن يكون الشبه مأخوذاً من الشئ وحده ، وبين أن يؤخذ ما بين شيئين وينتزع من مجموع كلام ، هو كما عرفتك في الفرق بين الاستعارة والتمثيل[٢].

والشبه في كلام الحجاج هنا مأخوذ مما بين دقة عبد الملك وتأنيه فى الاختيار ونثر الكلام من نثر عبد الملك كنانته وانتقاء العود الأجود من عيدانها ، وليس مأخوذاً من تشبيه الأمراء والجند بالكنانة والسهام . ومعنى : (فعجم عيدانها) مضغها لينظر أيها أصلب ، يقال : عجمت العود : إذا مضغته ، وكذلك في كل شئ[٣] .

والأسلوب يوحى بالتدبر وطول النظر والتأنى في اختيار الوالى المناسب لأهل العراق ، كما يوحى بثقة عبد الملك في الحجاج وعلمه بأنه أشد رجاله بأساً، وأقواهم عزيمة ، وأكثرهم حزماً ، وهو كما قلنا ترشيح للاستعارة، وليس كناية كما ذكر د/ هنداوى [٤].

---

(١) راجع : هامش الكامل للمبرد : ٣/٢ .

(٢) راجع : أسرار البلاغة ص٣٦٣ ، ٣٦٤.

(٣) راجع : الكامل : ٩/٢ ، ولسان العرب (عجم) .

(٤) راجع : هامش الكامل : ٣/٢ .

ثم يأتى الحجاج بترشيح آخر ، وهو قوله : (فرماكم بي) والذي يكشف في هذا السياق عما سيلحق أهل العراق من ضر بسبب هذا الاختيار ، فولايته لهم ليست كولاية من سبقوه ، وإنما هى رمية بسهم رائش من قبل رام خبير يحسن اختيار السهام المناسبة لكل غرض .

والأسلوب ينبئ عن عظم المصيبة والطامة التى ستنزل بأهل العراق بعد توليه، ويتسق مع أسلوب الاستعارة السابقة ، وما ذكر بعده من مرشحات له، في الكشف عن الجو النفسى الذي كان يسيطر على الحجاج وهو يزهو بهذه الكلمات .

إذ الإحساس بالتميز، والأفضلية ، والتفوق على الأقران في الصلابة ، وشدة البطش ، والتنكيل ، قد بلغ غايته ومنتهاه بهذه الصور والكلمات الناقلة لمشهد التفقد والاختيار بدقة ووضوح .

ولك أن تتأمل مدى ما وصلت إليه دقة الحجاج في اختيار الكلمات المناسبة والمعبرة عن أدق المعاني ـ وإن كثرت المرادفات ـ من خلال التعبير في هذا السياق بالنثر دون غيره مما يدل على معناه، كالكبِّ والإفراغ وغيرهما ، وذلك لأن النثر ـ كما يقول ابن فارس / ـ يدل على إلقاء شئ متفرق[١]، وقد فسره ابن منظور / بقوله: " نَثْرُكَ الشيءَ بيدك تَرْمي به متفرقاً مثلَ نَثْرِ الجَوْزِ واللَّوْزِ والسُّكَّرِ وكذلك نَثْرُ الحَبِّ إذا بُذر"[٢]وهذا أكثر مناسبة لإخراج ما في الكنانة من سهام ، من التعبير بالكب أو الإفراغ، لأنهما لا يكونان في شئ متفرق ، يقال : كَبَّ الشيءَ يَكُبُّه

---

(١) راجع : مقاييس اللغة لابن فارس (نثر) تعليق/ إبراهيم شمس الدين، ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط: أولى ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م .

(٢) لسان العرب (نثر) .

وكَبْكَبَه: قَلَبه، وكَبَّ الرجلُ إناءَه يَكُبُّه كَبّاً ، وكَبَبْتُ القَصْعَةَ: قَلَبْتُها على وجْهِها[١] ، ويقال : أَفْرَغَ الذهبَ والفِضَّةَ وغيرهما من الجواهر الذائبة صَبَّها في قالَبٍ[٢].

ومن هنا كان إيثار (النثر) على (الكب) أو (الإفراغ) أقوى وأبلغ ، لأنه جاء في سياق تفقد متفرق ، وهم رجال عبد الملك .

وبعد الانتهاء من بيان كيفية الاختيار ، يبين لهم الحجاج السبب الذي جعل عبد الملك بن مروان يتحرى الدقة ، ويلتمس هذه الصفات فيمن سيجعله والياً عليهم ، فيقول : (**لأنكم طالما أوضعتم في الفتن ، واضطجعتم في مراقد الضلال ، وسننتم سنن الغى**)

فبدأ بلام التعليل ، ثم أكد الخبر بـ (أنَّ) ليخرجه في صورة قوية رصينة تمكنه من النفوس فضل تمكن ، وإنما لجأ الحجاج لهذه الطريقة لأن الخبر يصف أهل العراق بالسعى الدائم في إحداث الفتن ، والركون إلى مهاوي الضلال والغى ، ومعلوم أن خبراً كهذا سيقابل بالاستنكار والنفير ، فكان من الأنسب له أن يساق بطريقة مؤكدة؛ ليقطع التوكيد عنه كل شك أو إنكار .

و(ما) في (طالما) زائدة كافة للفعل عن عمل الرفع[٣] والأسلوب معها يوحى بكثرة وقوع الحدث الواقع بعدها .

و (الإيضاعُ) : ضرب من السير مثل الخبب ، وهو أَن يُعْدِيَ بعيرَه

---

(١) لسان العرب (كبب) .

(٢) لسان العرب (فرغ) .

(٣) راجع: مغني اللبيب لابن هشام ٣٣٦/١ تحقيق د/ مازن المبارك ومحمد علي حمدالله ، ط: دار الفكر – بيروت ــ ط: السادسة ، ١٩٨٥م .

ويَحْمِلَه على العَدْوِ الحَثِيثِ[١] وقد استعير هنا للسعى في إحداث الفتن ، والاستعارة تصريحية تبعية ، نقلت صورة أهل العراق ـ كما يراها الحجاج ـ وهم يتنقلون من مكان إلى مكان مجتهدين في إشعال نيران الفتن والخلافات .

والأسلوب فيه إيجاز بالحذف ، إذ التقدير : أوضعتم في إحداث الفتن ، فحذف المضاف ، وأقام المضاف إليه مقامه ؛ ليجمع بين إيجاز الحذف وإيجاز القصر الذي حدث بأسلوب الاستعارة ، لتخرج العبارة في صورة مختصرة دالة .

وعرف (الفتن) بلام الجنس ليدخل فيها جميع أنواع الفتن ، وكأنهم لم يدعوا شيئاً من الفتن إلا وقد جدوا فيه واجتهدوا ، وصيغة الجمع في الكلمة نفسها تتحد مع الفعل (طالما) في الدلالة على تكرار وكثرة سعيهم في ذلك، حتى كأنه صار دأبهم الذي لا ينفك عنهم ولا ينفكون عنه .

وفي قوله : (واضطجعتم في مراقد الضلال) استعارة بالكناية ، حيث جعل للضلال مراقد يأوى إليها ، فشبهه بإنسان قد اتخذ مكاناً للنوم والراحة ، وأهل العراق قد نزلوا ضيوفاً عليه فآواهم .

والأسلوب يوحى بأن أهل العراق قد أصبح لهم مع الضلال ألفة واطمئنان ، وصار بينهم وبينه صلات ووشائج ، حتى إنه ليأنس بهم ويأنسون به .

وصيغة منتهى الجموع في (مراقد) توحى بالكثرة الكاثرة ، لصنوف الغى والضلال التى كان يركن إليها أهل العراق .

---

(١) لسان العرب (وضع) .

ونشير إلى أن د/هنداوى حمل الأسلوب في هذه الجملة على الكناية من تمكنهم في الغى وثباتهم فيه[١] ، وحمله على الاستعارة المكنية أولى ؛لأنه يكسبه نوعاً من التخييل والتشخيص لا يوجد مثله مع القول بالكناية .

وقوله : (سننتم سنن الغى) معناه : ابتدعتم طرق الغى ليُقْتَدَى بكم فيها، يقال لكل من ابتدأَ أَمراً عمل به قوم بعده هو الذي سَنَّه[٢].

والأسلوب كناية عن غوايتهم وإغوائهم ، وهى كناية قريبة واضحة ، فهى من النوع الذي يسمى بالإيماء [٣] .

وسوغ عطف الجمل الثلاث بالواو ما بينها من التوسط بين الكمالين ، حيث الاتحاد في الخبرية والمسند إليه مع وجود المناسبة بين هذه الجمل .

وقد أدى جناس الاشتقاق بين : (سننتم) و(سنن) دوراً مهماً في إحداث نوع من الموسيقى الداخلية لهذا الجزء من الخطبة جعله أكثر لفتاً واستمالة للآذان والعقول.

---

(١) راجع : هامش الكامل : ٣/٢ .

(٢) اللسان : (سنن) .

(٣) **الإيماء** : هو الكناية التى تقل فيها الوسائط مع وضوح المعنى المكنى عنه ، راجع : الإيضاح : ١٧٧/٥ .

الختام بالوعيد والتحذير مع الأمر بقتال العدو .

وبعد الحديث عن كيفية اختياره والياً عليهم وبيان سبب ذلك الاختيار ، يختم الحجاج خطبته بوعيد أهل العراق بأمض ألوان التعذيب والتنكيل، ثم يحذرهم من التجمهر والقيل والقال ، ثم يأمرهم بقتال عدوهم مع المهلب بن أبى صفرة منددًا مهدداً لمن يتخلف بعد أخذ عطائه ، يقول : (**أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأقرعنكم قرع المروة ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل ، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، وإنى والله لا أعد إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا فريت ، فإياى وهذه الشفعاء ، والزرافات والجماعات ، وقالاً وقيلاً ، وما تقول ؟ وفيم أنتم وذاك؟**

أما والله لتستقيمن على طريق الحق ، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده ، وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة ، وإنى أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه ، وأنهبت ماله ، وهدمت منزله) .

ويبدأ هذا الجزء كما بدأ الخطبة بالتنبيه بـ (أما) فالتأكيد بالقسم، ثم ساق الخبر من خلال جواب القسم مؤكداً بعدة مؤكدات .

حيث أكده باللام، وبالنون الثقيلة اللاحقة بالفعل المضارع ، وبالمصدر المبين لنوع عامله، والواقع مشبهاً به ، ليصل بث الروع في نفوس المخاطبين وإشعارهم بالقدرة على تنفيذ الوعيد إلى مدى .

وتأمل كيف أتى بجواب القسم على طريقة الاستعارة والتشبيه المرتكز عليها ، (لألحونكم لحو العصا) ثم عطف عليه ثلاث جمل مشابهة له في النسج والصياغة : (ولأقرعنكم قرع المروة) و (ولأعصبنكم عصب السلمة) و (ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل) ولا يخفى ما لهذه الطريقة من دور مهم في تقرير المعاني وتوكيدها، ونقلها إلى أذهان المخاطبين في صورة واضحة جلية .

واللَّحْوُ : القَشْرُ ، يقال : لَحا الشجرةَ يَلْحُوها لَحواً ، أى : قَشَرها[١] ، وهو هنا مستعار لسلخ الجلود بطريق الاستعارة التصريحية التبعية ، وهى استعارة خاصية بعيدة ؛ يكتنفها شئ من الخفاء والغموض ؛ ولذلك وضحها الحجاج بأسلوب التشبيه المرتكز عليها : (لحو العصا) .

والأسلوب فيه ـ كما ترى ـ من البشاعة والغلظة ما لا يمكن أن يطاق، وهو أسلوب مقزز في نفس الوقت ، إذ سلخ الآدميين أمواتاً أو أحياء من الأمور التى تشمئز منها النفوس ، وتدار عنها العيون ، وتنفر منها الطباع.

والجملة مقتبسة من الحديث الشريف : (**فإذا فَعَلْتُمْ ذلك سَلَّطَ اللهُ عليكم شرارَ خلقِهِ ، فالْتَحَوْكُمْ كما يُلْتَحى القَضِيبُ**)[٢].

والقرع : الدق ، يقال : قرعت الباب ، أى دققته ، والقرع:الضرب،يقال:

---

(١) لسان العرب : (لحا) .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده : ٢٧٤/٥ برقم : ٢٢٤٠٩ تحقيق الشيخ / شعيب الأرنؤوط ــ نشر : مؤسسة قرطبة ــ القاهرة ــ بدون تاريخ . وراجعه في كنز العمال لعلاء الدين البرهان قورى : ٨٠/١٤ ب : قريش برقم : ٣٧٩٩٠ تحقيق/ بكرى حيانى ــ صفوت السقا.نشر:مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط: خامسة : ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م .

يقال: قرع رأْسه بالعَصا ، أي : ضربه[١]، والمرو : حجارة بيض براقة تورى بالنار[٢] .

والأسلوب كناية عن ضرب الأعناق ودق الرؤوس بشدة وعنف ، والصورة التى رسمها التشبيه الموضح للكناية صورة منتزعة من واقع البيئة البدوية ، شأنها في ذلك شأن الصورة التى رسمها أسلوب التشبيه السابق : (لحو العصا) وكذلك الصورة التى سنراها من خلال التشبيه بعصب السلمة ، وضرب غرائب الإبل.

ولا يخفى أن الصورة إذا كانت حسية منتزعة من واقع البيئة التى يعيش فيها المخاطبون كانت أكثر وضوحاً ، وأشد تأثيراً ، ولذلك كانت حفاوة الجاهليين بمثل هذه الصور ، وقد علل النقد الحديث لهذه الظاهرة بأن الصور الحسية أقوى في الدلالة على المعنى والإحساس به من الصور البرهانية العقلية التى تهدف إلى الإقناع ... والصور الحسية أعمق كذلك وأبلغ في نقل التأثير المنشود من الصور الذهنية التى لا تلتمس عناصرها من الواقع الحسى الملموس [٣].

والسلم : شجر كثير الشوك ، إذا أرادوا أن يخبطوه شدوه ثم قطعوه ، وعَصْبُه : أن يُشد بنسعة كى لا يصيب شوكه الخابط ، ثم يخبط بالعصى حتى يسقط ورقه وهشيم عيدانه[٤] .

---

(١) اللسان : (قرع) .

(٢) اللسان : (مرو) .

(٣) راجع : قضايا النقد الأدبى المعاصر د/ محمد زكى العشماوى ص٢٠٢ ط: الهيئة العامة للكتاب الإسكندرية ، بدون تاريخ .

(٤) اللسان : (خبط) والكامل : ١٣/٢ .

والعصب مستعار لحبسهم ، وإذلالهم، وإنزال ألوان التعذيب والتنكيل بهم ، تمهيداً لقتلهم وإبادتهم .

والملاحظ هنا أن الحجاج لم يذكر ما يدل على قتلهم ، وهو المقابل للخبط بالنسبة للشجر ، بل اكتفى بذكر العصب فقط : (لأعصبنكم عصب السلمة) وذلك اعتماداً على إلفهم لهذه الصورة ، ومعرفتهم التامة بأن العصب لا يكون إلا كمقدمة وتمهيد للخبط ، فالصورة هنا محسوسة ، ملحوظة ، يألفها كل واحد منهم من خلال مهنة الرعى الكادحة .

و(غرائب الإبل) هى الإبل الغريبة التى تدخل بين الإبل حال ورودها الماء ، فتضربها الرعاء ضرباً شديداً .

والتشبيه في قول الحجاج : (ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل) ناطق بما سيلحقه بهم من ضرب، وتعقب، ومطاردة ، ولك أن تتخيل قدر ما تلاقيه الإبل الغريبة حينما تزاحم غيرها في المراعى أو في موارد المياه من ضرب وذود يجعلها شريدة طريدة كلما دخلت في إبل قوم قابلوها بذلك.

وهكذا سيكون صنيع الحجاج بأهل العراق ، إذا نشزت منهم طائفة ، أو خالفت منهم جماعة ، أو أعرض منهم فرد ، تعقبهم بالضرب والتعذيب حتى يردهم أو يفنيهم.

ونشير إلى أن عطف الجمل السابقة بالواو لما بينها من التوسط بين الكمالين .

وبعد هذا الوعيد الذي يفيض ازدراء وإصغاراً، بين لهم الحجاج ـــــ بطريق الاقتباس ـ سبب هذا الوعيد ، ويلمح إلى أنهم كانوا في نعمة ، وسيصبحون بسبب تمردهم وعصيانهم في نقمة ، يقول : " فإنكم لكأهل

قَرْيَةٍ كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ " .

فيؤكد الخبر بـ(إن) واللام الواقعة في خبرها ؛ والذي جاء بأسلوب التشبيه : (لكأهل قرية) بياناً لحال المشبه ، وقياساً لها على حال أهل هذه القرية وما نزل بهم من جوع وخوف لما كفروا بنعمة الله .

ولا يخفى أن الاقتباس هنا من قول الله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١) .

ويعود الحجاج بعد هذا الاقتباس إلى الحديث عن نفسه مرة أخرى ، إلا أن الحديث عن النفس في هذه المرة مشوب بالوعيد والتحذير ، حيث بين لهم أنه لا يعد إلا وفى ، ولا يهم بشئ إلا مضى فيه ، ولا يقدر شيئاً إلا قطعه ، يقول : **(وإني والله لا أعد إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا فريت)** فيمضى على عادته في توكيد الخبر ، فيؤكده بـ (إن) والقسم المعترض بين اسمها وخبرها ، والمقسم به هنا هو لفظ الجلالة ، إيماء إلى تعظيم الخبر المقسم عليه حتى يمتثلوا ويستجيبوا ، ثم يأتى خبر (إن) مصوغاً صياغة مؤكدة قوية نهض بها أسلوب النفى والاستثناء (لا وإلا) ذلك الأسلوب الذي لا يؤتى به إلا حينما تعلو نبرة الإنكار ، ويرتفع صوت التكذيب ، أو حينما ينزل المتكلم مخاطبه منزلة من ينكر ويكذب، والأسلوب هنا من قبيل قصر الموصوف على الصفة ، حيث قصر الوعد والهم والخلق، على الوفاء والمضاء والفرى ، قصراً

---

(١) سورة النحل آية : ١١٢ .

حقيقياً مبنياً على المبالغة، إذ قد يعد ولا يفي، ويهم ولا يمضى، ويخلق ولا يفرى .

وربما يأتى التوكيد عموماً حينما يريد المتكلم " إعلام المخاطب بأنه يقول كلامه جازماً قاصداً لما يدل عليه كلامه ، مثبتاً منه ، لا يقوله عن توهم أو ثرثرة أو تضليل أو اختراع "[١] وهذا هو قصد الحجاج من توكيده الخبر هنا بهذه الطريقة القوية ، طريق النفي والاستثناء .

وعطف الحجاج هذه الجمل الثلاث بالواو لما بينها من التوسط بين الكمالين .

وبالنظر في هذه الجمل نجدها مستوية المقادير ، متلائمة المعانى، ولذلك فقد أحدث تواليها بهذه الطريقة صبغاً بديعياً جميلاً ، يسمى بـ(التفويف) وإن كان الخطيب / يرى إرجاع صوره، إما إلى مراعاة النظير - كما هو الحال هنا - وإما إلى المطابقة[٢] .

ومما زاد هذه الجمل جزالة ، وقوة ، ولفتاً للأذهان والأسماع ، أن جاءت على طريقة السجع المطرف .

وبعد هذا الحديث الكاشف عما تتسم به النفس من الجدية والمضى في الأمور ، يحذر الحجاج أهل العراق من اقتراف شئ من الأمور التى تخل بنظام الحكم، وتؤدى إلى الفوضى والاضطراب ، يقول : (**فإياي وهذه الشفعاء ، والزرافات ، والجماعات ، وقالاً ، وقيلاً ، وما تقول ؟**

---

(١) راجع : البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها / عبد الرحمن الميدانى : ١٤٠/١ (بدون نشر) ١٩٩٣م .

(٢) **التفويف** : هو أن يؤتى في الكلام بمعان متلائمة في جمل مستوية المقادير أو متقاربتها . راجع الإيضاح : ٢٣/٦ .

وفيم أنتم وذاك ؟)

فهو يحذرهم من الشفاعة بين يدى الحاكم لمن ارتكب مخالفة تستوجب العقوبة ، وينهاهم عن التجمهر، والتجمع ، واتباع القيل والقال ، وتناقل الشائعات والأخبار، وكثرة السؤال .

ويبدأ هذه الفقرة بفاء الفصيحة المشربة بالسببية ، والتى أغنت عن شرط محذوف تقديره : إذا كان الأمر كذلك، فإياى وهذه الأمور حتى لا يتعرض من يخالف لتنفيذ العقوبة .

وفاء الفصيحة حينما تأتى في صدر جواب الشرط المحذوف تكون . كما يقول أستاذنا د/ صبَّاح دراز ـ شارة ورايـة بما لها من معنى التسبب والجزاء ، وأن ههنا كلاماً خبيئاً مطوياً ، أو فراغاً ينشط الفكر والخيال لملئه مستعيناً بالسياق[١].

ثم يشير الحجاج إلى ما ذكر بعد أسلوب التحذير بما يشار به للقريب (هذه) ليومئ بأن هذه الأمور قريبة من نفوسهم ، مخالطة لدمائهم ، حتى كأنها سجية فيهم لا تفارقهم .

ومعنى(الزرافات):الجماعات ، واحدتها الزرافة بمعنى ، الجماعة[٢] ، وعلى هذا فإن عطف (الجماعات) على (الزرافات) من قبيل عطف المرادف على المرادف لتوكيد المعنى وتقريره ، ونظيره في القرآن الكريم قوله ﷻ حكاية عن يعقوب عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾[٣].

---

(١) راجع علم المعاني لأستاذنا د/ صبَّاح دراز ص١٤٣ وما بعدها ـ مطبعة التركى ـ دمنهور ـ ١٩٩٧م .

(٢) لسان العرب (زرف) .

(٣) سورة يوسف من الآية : ٨٦ .

وقد جمع الحجاج (الشفعاء) و(الزرافات) و (الجماعات) ليوحى بكثرة وقوع هذه الأشياء من أهل العراق وتنوعها ، وعرفها بلام العهد الذهني ليشير إلى أنهم يعرفون هذه الأمور حق المعرفة ، وأنها لا تغيب عن أذهانهم.

ونكر (قالاً ، وقيلاً) لإفادة التحقير والتقليل ، إذ المعنى على التحذير من اقتراف أدنى شئ من القيل والقال ، مع تحقيرهما، لأنهما من الأشياء التى لا تعود على صاحبها إلا بالضرر .

ومعنى:(قالاً) قال فلان، ومعنى:(قيلاً) قيل كذا، وعلى هذا فهو يحذرهم من ترويج الأخبار والشائعات، سواء أكانت معلومة المصدر أم مجهولة .

و(القيل والقال) يكنى بهما عن فضول ما يتحدث به المتجالسون ، وفي الأثر أنه ﷺ نهى عن القيل والقال ، وكثرة السؤال، ومعناه : النهى عن الجدال والخلاف ، وقيل : عن كثرة الكلام مُبتدئاً ومُجيباً، وقيل أَراد به حكاية أَقوال الناس والبحث عما لا يجدي عليه خيراً ولا يَعْنيه أَمرُه ، وقيل : المراد به كثرة القَوْلِ وإِيقاع الخصومة بين الناس بما يحكي البعضُ عن البعض ، وقيل : إِن اشتِقاقَهما من كثرة ما يقولون: قال، وقيل له[1].

---

(١) راجع: فتح الباري للعسقلانى:٤٠٦/٣ ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ــ ط:دار المنار ــ بيروت ــ ط: أولى ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٩م ، عمدة القارئ للعينى:٥١٣/١٦ ، مراجعة / صدقى جميل العطار ط:دار الفكر ــ بيروت ــ بدون تاريخ ، اللسان (قول). ونص الحديث:(إن الله كره لكم ثلاثاً : قيل وقال،وإضاعة المال، وكثرة السؤال) فتح الباري، ك: الزكاة ، ب:(لا يسألون الناس إلحافاً) برقم : ١٤٧٧ .

وهذا الذي قيل في بيان المراد من نهيه ﷺ عن القيل والقال ، ينطبق على ما أراده الحجاج من تحذير القوم منهما مع تفاوت المقامات، فنهيه ﷺ يشمل كل تحدث فيما يوقع المسلم في المحظورات، أما تحذير الحجاج فلا يكاد يتعدى ما يحدث الفتنة، ويثير الناس ، ويخل بأمن الدولة الحجاجية الأموية .

وبعد هذا التحذير عن القيل والقال يحذرهم الحجاج عن معارضته أو سؤاله عما يقول : (وما تقول ؟) بصيغة المضارعة المحتملة للحال والاستقبال ، ليكون التحذير من سؤاله عما يسمعونه منه الآن ، أو من سؤاله عن أى شئ يقوله أو يفعله في المستقبل ، والاستفهام فيه للنصح والإرشاد .

والإشارة في قوله: (وفيم أنتم وذاك) إلى ما سبق ذكره من الشفعاء ، والجماعات ، والقال والقيل ، وما تقول ، وقد أشار إلى ذلك بما يشار به للبعيد على الرغم من قرب ذكره ، للإيذان بعظمته ، وعلو مكانته ، والإشارة إلى عظم العقوبة المترتبة عليه.

والاستفهام فيه كالاستفهام السابق للنصح والإرشاد ، وتوالى الاستفهام في هذه الفقرة جعل أسلوب التحذير أكثر إشارة ولفتاً وحملاً لكل واحد من المخاطبين على أن يضع نفسه من هذه الأشياء الموضع الذي لا يوقعه في المخالفة .

وبعد هذا التحذير يعود الحجاج إلى الوعيد مرة أخرى ، فيتوعد من يحيد من أهل العراق عن طريق الحق ، ومن يتخلف منهم عن قتال العدو مع المهلب بن أبى صفرة ، بأمض ألوان التعذيب والتنكيل ، يقول : (**أما والله لتستقيمن على طريق الحق، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده**

وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام، إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله) .

ويبدأ هذا الجزء من الخطبة بأداة الاستفتاح والتنبيه والتأكيد (أما) ليلفت اهتمامهم لما سيأتى بعدها ، وليتمكن من سوق الخبر مؤكداً بالقسم ، والمقسم به هنا هو لفظ الجلالة ـ على النسق الذي اعتاد عليه الحجاج في هذه الخطبة وفي غيرها ـ ليزيد المقسم عليه تعظيماً ومهابة .

ثم يأتى جواب القسم مؤكداً باللام وبالنون الثقيلة المتصلة بصيغة المضارعة : (لتستقيمن على طريق الحق) .

والتعبير هنا بالاستقامة، وليس بالمضي أو الاستمرار ، إشارة إلى أنه يراهم معوجين عن طريق الحق ، خارجين عنه ، وهو يريد أن يردهم إليه ، ويقومهم عليه .

ثم يعطف على جملة الجواب جملة أخرى مؤكدة كتلك : (أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا في جسده) والعطف هنا بـ (أو) الدالة على التخيير ليضعهم أمام أمرين : إما الاستقامة والامتثال ونسيان الذات ، وإما التعذيب والتنكيل .

وتأمل قيمة التعبير بلفظ الإحاطة والشمول (كل) وكذلك التعبير بكلمة (رجل) بدلاً من (واحد) أو(إنسان) وما في ذلك من الدلالة على القدرة على تنفيذ ما يتوعد به في كلٍ على حدة مع إذلال المخاطبين وقهرهم، والإشارة إلى أن صفة الرجولة التي يستشعرونها في أنفسهم لا تجدي عنده شيئاً.

ويأتى التنكير في (شغلاً) ليفيد التفخيم والتهويل ، أى يدع لكل رجل يخالف منهم من العاهات ما يشغله عن أى شئ .

ثم يؤكد لهم أمر أمير المؤمنين له بإعطائهم أعطياتهم ، كى تطمئن قلوبهم، وترضى نفوسهم، ويقبلوا على محاربة العدو: **(وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة)** فأكد بـ (إنّ) وجمع بين الجناس الناقص في (أمير- أمرني) وجناس الاشتقاق في (أعطيكم أعطياتكم) مما زاد الجملة قوة، وإيقاعاً موسيقياً، يستصغى الآذان ، ويحمل النفوس على الاستجابة .

وتأمل كيف كان حرص الحجاج في هذه الجملة على لفت المخاطبين وحثهم على القتال ، وذلك من خلال إضافة العدو إلى ضميرهم، إضافة تشعرهم بأنهم سيقاتلون عدوهم هم، وليس عدو بنى أمية فحسب.

ويختم **الحجاج** خطبته بهذا الوعيد اللاذع لمن يتخلف عن القتال : (**وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام، إلا سفكت دمه، وأنهبت ماله، وهدمت منزله**) .

فقد أكد الكلام بـ (إن) وبالقسم الصريح الواقع خبراً لها ، ثم أتى بالمقسم به لفظ الجلالة . على عادته . ليضفى على المقسم عليه مهابة ، ويصل بالأسلوب إلى أقصى غايات التخويف والتهديد، ليكون أكثر حملاً للمخاطبين على الاستجابة وعدم التخلف.

ثم صاغ المقسم عليه صياغة مؤكدة أيضاً ، حيث أتى به في جملة قصر، طريقه النفي والاستثناء: (لا أجد رجلاً ... إلا سفكت دمه ...) حيث قصر جزاء من تخلف على سفك دمه ، وإنهاب ماله ، وهدم منزله ، قصر موصوف على صفة.

ونكرّ (رجلاً) للدلالة على الإفراد أو العموم ، أى: لا أجد رجلاً واحداً، أو أي رجل قد تخلف بعد أخذ عطائه إلا صنعت به هذا الصنيع .

وأسند سفك الدماء، وهدم المنازل، إلى تاء المتكلم؛ ليضفى على الأسلوب مزيداً من التفزيع والتخويف .

ولا يخفى أن هذا الإسناد مجاز عقلي علاقته السببية ، جئ به للإشارة إلى قوة السبب وشدة تأثيره في إحداث الفعل ، وكأن من يقوم بهذا هو الحجاج نفسه ، وليس مأموراً له، وربما كان الإسناد في هاتين الجملتين حقيقياً؛ ليشير إلى أنه سيتولى عقاب من يخرج عن أمره.

وأدخل همزة التعدية على الفعل (نهب) وأسنده إلى تاء المتكلم ، ليدل بذلك على أنه سيتسبب بقتله من يتخلف في ترك ماله نهباً للآخرين .

وتأمل دقة الحجاج وبراعته في استخدام الصياغة المناسبة للمعنى الذي يريده ، حيث خالف بهذه الصياغة ما جرى عليه أسلوبه في صياغة الفعلين: (سفك وهدم) قبل وبعد هذا الفعل ؛ لينأى بنفسه عن شبهة القتل لنهب المال، إذ لو قال: ونهبت ماله ؛ لأفادت هذه الصياغة وقوع النهب منه، وهذا ما لا يريده الحجاج، ولا يرتضيه لنفسه ، ومن هنا تبدو قدرة الحجاج وسلطانه الواسع . كما يقول الأستاذ حنا الفاخورى - على اللغة وأساليبها، وتأصل الموهبة الفنية في قواه الذهنية واللسانية[١].

كما تبدو براعة الحجاج واضحة في اختيار سفك الدماء ، وإنهاب الأموال ، وهدم المنازل ، والتركيز عليها دون غيرها من ألوان التنكيل ، كترميل النساء ، وإيتام الأطفال ؛ وذلك لأن في الأول إزهاقاً للروح ، وفي

---

(١) راجع : الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم أ/ حنا الفاخورى ص٣٦٨ ط: دار الجيل ــ بيروت بدون تاريخ .

الثاني والثالث تشريداً للأطفال والنساء ، وتركاً لهم بلا مال ولا مأوى، وهذا أشد وقعاً على النفس ، وأكثر تعذيباً لها مما سواه.

ومما جعل هذا الختام أكثر وقعاً، وأشد تأثيراً، اشتماله على السجع المطرف في: (أنهبت ماله ، وهدمت منزله) .

وبعد هذا التحليل البلاغي للخطبة ننتقل إلى الحديث عما يتسم به أسلوبها من خصائص وسمات فنية جعلتها أكثر ذيوعاً وانتشاراً ، وهذا هو موضوع المبحث الثاني .

المبحث الثاني
خصائص الأسلوب في هذه الخطبة
خصائص الأسلوب في هذه الخطبة

كانت الخطابة قبل بنى أمية ـ كما يقول الأستاذ /حنا الفاخورى ـــ وسيلة الإقناع والموعظة والإرشاد، لكنها أصبحت في عهدهم وسيلة السيطرة والتعسف والاستبداد، وقد بلغت مع الحجاج بن يوسف أوج العنف والقسوة ، وأصبحت معه سوطاً في الظهور ، وشفرة في النحور ، وقضاء جباراً يصل إلى العظام والأمخاج[١] .

وإذا كان أسلوب الخطابة بوجه عام يجب أن تظهر فيه . كما يرى الأستاذان : على الجارم ومصطفى أمين ـ قوة المعاني والألفاظ ، وقوة الحجة والبرهان ، وقوة العقل الخصيب ، وأن يمتاز باستعمال المترادفات ، والتكرار ، وضرب الأمثال ، وتعاقب ضروب التعبير من إخبار إلى استفهام، إلى تعجب إلى استنكار[٢]، فإن هذه الخطبة تعد نموذجاً أمثل لأساليب هذا الفن ، حيث امتازت بقوة المعاني والألفاظ ، ودلت على قوة عقل الحجاج ، وخصوبته ، وقدرته على صياغة الكلام صياغة جيدة مؤثرة ، وتضمنت صوراً لاستعمال المترادفات كما في قوله : (الزرافات ، والجماعات) وضرب فيها الحجاج مثلاً لأهل العراق حينما شبههم بأهل قرية كانت آمنة مطمئنة ، ونوع الأسلوب فيها ما بين خبر وإنشاء ، فجاءت خطبته قوية مؤثرة ، متدفقة من لسان وصف بأنه : " من أعنف

---

(١) راجع : الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم ص٣٦٧ .

(٢) راجع : البلاغة الواضحة للأستاذين / علي الجارم ، ومصطفى أمين ص١٦ ، نشر : دار المعارف ــ القاهرة ــ بدون تاريخ .

الألسنة بياناً ، وأشدها إغراباً ، وأوجزها تركيباً للعبارة ، وأبرعها اختياراً للفظة المعبرة عن أعنف معنى أتم ما يكون التعبير، وأعنف ما يكون الأداء، وأعنف ما تكون الموسيقى المرافقة لذلك الأداء المقررة لذلك المعنى"(١).

غير أنه يؤخذ عليه في هذه الخطبة عدم الاكتراث بالتكرار كوسيلة قوية لتأكيد الكلام وتثبيته ، فكان مخالفاً بذلك لما عليه أكثر الخطباء.

هذا وقد خلت ألفاظ الخطبة خلواً تاماً من الأمور التى تخل بفصاحة المفردات والتراكيب على حد السواء، وجاءت ـ في مجملها ـ قوية، جزلة ، دالة ، شديدة الجرس ، عالية النبرة ، مشتملة ـ في بعض الأحيان ـ على بعض الحروف التي تمتاز بالشدة والجهر والقلقلة ، وربما توالت الكلمات بهذه الحروف ، لتحدث نوعاً من شدة الصوت وجهارته؛ ليصاحب هذا الصوت التعبير بمعان شديدة قوية ، فتخرج هذه المعاني في جو ملئ بالعنف والانفعال، وتأمل توالى القافات في (الشقاق والنفاق ، والأخلاق ، يقعقع) وما أحدثه هذا التوالى من شدة وعنفوان في الجرس، جعل المعنى معه أكثر قوة، ولفتاً، وهزاً للقلوب ، وزعزعة للنفوس .

وقد صاحب هذه القوة اللفظية قوة أخرى أسلوبية، تتمثل في إحاطة بعض فقرات الخطبة بسياج أقوى ما يكون من صور التوكيد، ليصل الحجاج من خلال ذلك إلى إقناع المخاطبين بأنه حازم عازم في كل ما تضمنه كلامه من وعد ووعيد.

ومن الملحوظ في أساليب التوكيد في هذه الخطبة الإكثار من أسلوب القسم ـ أشد أساليب التوكيد تقوية ـ مسبوقاً بـ (أما) التنبيهية

---

(١) راجع : الجامع في تاريخ الأدب العربى القديم ص٣٦٦ .

الاستفتاحية ، والتي تعد من أساليب التوكيد أيضاً ، ثم يأتى تأكيد آخر بعد القسم ، إما ب (إنّ) ، المؤكدة، وإما بصيغة المضارعة المسبوقة باللام ؛ والمختومة بالنون المؤكدتين.

وقد ورد هذا الأسلوب في مفتتح الخطبة: (أما والله إني لأحمل الشر بحمله) وورد في مقام الوعيد:(أما والله لألحونكم لحو العصا..) و(أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده).

وقد تتقدم (إن) المؤكدة على القسم، فتحل محل (أما) ، وذلك في ثنايا الكلام الذي سبقه تنبيه بـ (أما) كما في قوله:(إنى والله يا أهل العراق ... ما يقعقع لي بالشنان) وقوله: (وإني والله لا أعد إلا وفيت) وقوله:(وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه) .

ولم تقف أساليب التوكيد في هذه الخطبة عند التوكيد بالقسم و(إن) وأداة التنبيه (ما) ، وإنما تعدت ذلك إلى التوكيد بالقصر، كما في قوله: (لا أعد إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فريت) وقوله: (لا أجد رجلاً ... إلا سفكت دمه) والقصر هنا بطريق النفي والاستثناء ، ذلك الطريق الذي لا يأتي إلا في أمر ينكره المخاطب ويشك فيه ، أو فيما ينزل منزلة ذلك، أو في المعنى الذي يحتاج إلى فضل تقرير وتوكيد بعيداً عن حال المخاطب [١].

---

(١) راجع : دلائل الإعجاز ص٣٣٢ وما بعدها تحقيق الشيخ / محمود محمد شاكر. نشر دار المدني بجدة ــ طبعة ثالثة١٤١٣هـ ١٩٩٢م، ودلالات التراكيب ص١٠٤.

والتوكيد بـ (قد) كما في قوله: (قد أينعت) والتوكيد باللام و(قد) معاً، كما في قوله:(ولقد فررت عن ذكاء)، وكذلك التوكيد بصور البيان كالتشبيه، والاستعارة، والكناية.

ومن خصائص الأسلوب في هذه الخطبة كثرة استخدام أساليب التنبيه قبل سوق الخبر ، وقد نوع الحجاج بين هذه الأساليب حتى لا تمضى الصياغة على سمت واحد ، فنراه قد نبه القوم بالنداء تارة ، وبـ (أما) الاستفتاحية تارة أخرى ، حيث بدأ بالتنبيه بالنداء :(يا أهل الكوفة) ثم أعقبه بالتنبيه بـ (أما):(أما والله إني لأحمل الشر بحمله) ثم نبه أهل العراق جميعاً بالنداء:(يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق) ثم نبههم بـ(أما) : (أما والله لألحونكم لحو العصا) ثم كرر هذه الوسيلة مرة أخرى:(أما والله لتستقيمن على طريق الحق) .

ويعد أسلوب الخطبة بوجه عام أسلوباً خبرياً ، حيث لم يمتزج بأسلوب الإنشاء إلا قليلاً ، إذ لم يرد فيها من أساليب الإنشاء إلا القسم ، والاستفهام، والنداء ، وخروج الخبر عن معناه الحقيقى إلى إنشاء الدعاء في قوله : (أطال الله بقاءه) .

ويعد أسلوب القسم أكثر هذه الأساليب وروداً ، حيث ورد في الخطبة سبع مرات ، وذلك في قوله : (أما والله إني لأحمل الشر بحمله) وفي قوله : (إني والله يا أهل العراق) وفي قوله :(ولقد فررت عن ذكاء) وفي قوله : (أما والله لألحونكم) وفي قوله : (وإني والله لا أعد إلا وفيت) وفي قوله : (أما والله لتستقيمن على طريق الحق) وكذلك في قوله : (وإني أقسم بالله) .

أما أسلوب الاستفهام فلم يرد فيها إلا مرتين، وذلك في قوله: (وما تقول؟ وفيم أنتم وذاك؟) .

ومثله أسلوب النداء، حيث لم يرد فيها إلا في قوله: (يا أهل الكوفة) وفي قوله: (يا أهل العراق) .

ولعل السبب في قلة أساليب الإنشاء في الخطبة يرجع إلى حرص الحجاج فيها على تقرير المعانى التى تضمنتها وتوكيدها ، بعيداً عن الإثارة والتهييج، وهذا يناسبه الأسلوب الخبرى، لا الأسلوب الإنشائى.

كما يعد أسلوب الخطبة بوجه عام أسلوباً موجزاً على الرغم من الجنوح ـ في بعض الأحيان ـ إلى بسط الموضوع وتفصيله ، والاستعانة ببعض صور الإطناب ، كذكر العام بعد الخاص في قوله : (يأهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق) ، والاعتراض بالجملة الدعائية في قوله : (وإن أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ نثر كنانته) وكذلك الاعتراض بالقسم في قوله : (إني ـ والله يا أهل العراق ـ ما يقعقع لي بالشنان) وفي قوله : (وإني ـ والله ـ لا أعد إلا وفيت) .

ومن خصائص الأسلوب في هذه الخطبة الاستعانة ـ بقلة ـ بالتصوير البياني المتنوع ، حيث استعان بأسلوب التشبيه المبين لحال المشبه ومقداره ، وذلك في قوله : (ولا يغمز جانبي كتغماز التين) وفي قوله : (لألحونكم لحو العصا) وفي قوله : (ولأقرعنكم قرع المروة) وفي قوله : (ولأعصبنكم عصب السلمة) وفي قوله : (ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل) وفي قوله : (فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة) .

واستعان بأسلوب الاستعارة المكنية ، كما في قوله : (إني لأحمل الشر بحمله)، وفي قوله: (رؤوساً قد أينعت، وقد حان قطافها) وأسلوب الاستعارة

التصريحية ، كما في قوله: (لألحونكم) وأسلوب الاستعارة التمثيلية ، كما في قوله : (وإن أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ نثر كنانته بين يديه...) وغير ذلك من أساليب الاستعارات التى وضحتها خلال التحليل.

كما استعان الحجاج في هذه الخطبة بأساليب الكناية ، وذلك في قوله (وإني لأري أبصاراً طامحة، وأعناقاً متطاولة) وفي قوله : (ولأقرعنكم قرع المروة) وهكذا .

ومن أبرز خصائص الأسلوب في هذه الخطبة قلة المحسنات البديعية بوجه عام ، وقلة السجع بصفة خاصة، وهذا على عكس المعتاد في أساليب الخطابة والتى يكثر فيها هذه المحسنات، وهذا لا يقلل من جودة أسلوبها، وحسن صياغتها ؛ إذ لا يلزم في إنشاء الرسائل والخطب أن تكون مسجوعة، يقول أبو هلال /: " واعلم أن الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط، ولا يلزمك فيها السجع، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن، ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد)[١].

بل إن من أوصاف البلاغة ـ كما يرى قدامة / ـ أن يكون السجع في موضعه ، وعند سماحة القريحة به ، وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه[٢].

ومن مواطن السجع التى وردت في الخطبة قوله في بدايتها: (إني لأحمل الشر بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله) ثم قوله بعد ذلك:

---

(١) راجع : الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص١٧٦ تحقيق د/ مفيد قميحة ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط: ثانية ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م .

(٢) راجع : نقد النثر لقدامة بن جعفر ص١٠٧ ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م .

(والله يأهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق) ثم قوله: (وإني والله لا أعد إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فريت) ثم قوله في نهايتها: (وأنهبت ماله وهدمت منزله).

وجميعها أسجاع حسنة محمودة ؛ لأنها جاءت مطبوعة لا صنعة فيها ولا تكلف.

ومن المحسنات البديعية التى اشتمل عليها أسلوب الخطبة . غير السجع ـ مراعاة النظير في الجمع بين الألفاظ ذات المعانى المتناسبة، كالجمع بين الأبصار، والأعناق، والرؤوس، في قوله: (وإني لأري أبصاراً طامحة، وأعناقاً متطاولة، ورءوساً قد أينعت) وكذلك الجمع بين النفاق ، والشقاق ، ومساوئ الأخلاق ، في قوله : (إني والله يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق) ، وكذلك الجمع بين الوعد والوفاء ، والهم والمضى ، والخلق والفرى، في قوله: (لا أعد إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فريت) .

ومن المحسنات البديعية الواردة في الخطبة أيضاً الاقتباس ، وقد ورد فيها مرتين، الأولى كان الاقتباس فيها من الحديث الشريف: (فإذا فعلتم ذلك سلط الله عليكم شرار خلقه فالتحوكم كما يلتحى القضيب) حيث اقتبس منه الحجاج قوله: (لألحونكم لحو العصا) والثانية كان الاقتباس فيها من الآية الكريمة: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً... ﴾ الآية ، حيث اقتبسها الحجاج في قوله: (فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة...).

ومنها : التضمين،حيث ضمن الحجاج خطبته أبياتاً شعرية مناسبة لهيئته التى دخل عليها المسجد وصنيعه فوق المنبر ، أو مناسبة لأحوال العراق وما كان يموج فيه من الفتن آنذاك.

هذا ويعد نظم الخطبة نظماً حسناً تماسكت فيه الألفاظ تماسكاً قوياً ، وتسلسلت فيه المعانى تسلسلاً منطقياً ، بدأ بالتعريف بالنفس تعريفاً مشوباً بالترهيب والوعيد ، واستمر هكذا حتى ختم بتوجيه القوم لقتال العدو.

وقد وفت الخطبة بالغرض الذي أراده الحجاج تمام الوفاء ، حيث نزلت على أهل العراق . كما ذكرنا . نزول الصاعقة التى أذهلتهم ، وملأت قلوبهم خوفاً وفزعاً ، وهذا ما أراده الحجاج وحرص على بثه في نفوس القوم من أول مواجهة ، وظل مستمراً عليه بعد ذلك ، فكان يعمل . كما يقول الأستاذ / حنا الفاخورى . على بعث الذهول في نفس المستمع ، فينهال عليه تهديداً وترهيباً ، في غير لين ولا شفقة ، وهو يعمد في ذلك إلى ضروب من العوامل الإرهابية ، فيبث القوة في كل ما يقول ويفعل ، وإذا القوة تمثيل على المنبر ، وإغراب بدوى في اللفظ والعبارة ، وتأكيد، وقسم ، وموسيقى لفظية شديدة ، وأبيات شعرية عنيفة في معناها وتلاطم ألفاظها ، وتجسيم للحقائق على خطة الجاهليين، وحشد للصور التهويلية التى يقذفها الخيال الجبار حمماً مشتعلة(١) .

ولكن يؤخذ عليه في هذه الخطبة أنه تعامل مع أهل العراق وكأنه يتعامل مع قطيع غنم، حيث الألفاظ والأساليب التي وصلت إلى حد الازدراء ، والإصغاء ، وسلب الإنسانية ، وهذا ما يحمل القوم على

---

(١) راجع : الكامل في تاريخ الأدب العربي القديم ص٣٦٧ .

الاعتراض والتبرم ، مما أدى إلى الهرج داخل المسجد ، وكثرة القتلى خارجه كثرة هائلة ، حيث وصل عدد القتلى عقب هذه الخطبة إلى بضعة وسبعين ألفاً.

والعجيب أن الحجاج كان يعلم أن أهل العراق سيواجهونه بعد الانتهاء من خطبته هذه المواجهة ، وكأنه تعمد بهذه القذائف اللفظية والأسلوبية إثارتهم وتأليبهم عليه، يروى أنه نشر رجاله على أبواب المسجد، وطلب إليهم أن إذا سمعوا الجلبة داخل المسجد فلا يخرجن خارج حتى يسبقه رأسه إلى الأرض، وكان قد أخبرهم بأنهم سيحصبونه بالحصى حينما يضع عمامته على ركبته(١)

ولهذه الخصائص التي امتاز بها أسلوب هذه الخطبة كان اهتمام الأدباء بها رواية وشرحاً .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه تسليماً كثيراً

---

(١) راجع: الإمامة والسياسة ٢/٢٠٤.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وأصلى وأسلم على المبعوث رحمه بخاتم الرسالات ، سيدنا محمد النبي الأمي الأمين ، وعلى آله وصحبه المخلصين ، ومن تبع سننه بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فقد عشنا فيما مضى مع الحجاج وخطبته التي ألقاها فور وصوله إلى الكوفة بعد أن ولاه عبد الملك بن مروان العراق سنة خمس وسبعين للهجرة .

وقد جاءت الخطبة ـ كما رأينا ـ عبارة عن جذوة من نار الوعيد التي أرجف بها الحجاج أهل العراق من أول وهلة ، أو كما يقول الأستاذ/ حنا الفاخورى: عبارة عن انفعال صاخب، وكلام لاهب(١).

ومن خلال عرضنا للخطبة وتحليلها نستطيع أن نضع أيدينا على النتائج التالية:

أولاً: ظهور شخصية الحجاج قوية، عاتية، متمكنة من صياغة الأساليب التى تستطيع من خلالها التعبير عما تريد في صورة قوية مؤثرة ومخيفة.

ثانياً: حرص الحجاج على إذلال أهل العراق، وإرغامهم على طاعته، وبث روح الخوف في نفوسهم من بداية الأمر.

ثالثاً: نشوة الحجاج بولايته العراق، وإحساسه بأنه أصلح رجال عبد الملك لهذه الولاية .

رابعاً: ظهور أهل العراق ـ في نظر الحجاج ـ أهل تمرد وشقاق ونفاق.

---

(١) راجع : الكامل في تاريخ الأدب العربي القديم ص٣٦٥ .

خامساً: خلو الخطبة من الأمور التي تخل بفصاحة الكلمة والكلام على حد السواء.

سادساً: كثرة أساليب التوكيد في الخطبة كثرة ملفتة تجعلنا نشير إلى أن ظاهرة التوكيد في خطب الحجاج تحتاج لدراسة بلاغية مستقلة تكشف عن أسرارها ولطائفها.

سابعاً: قلة التصوير بالأساليب البيانية تشبيهاً، ومجازاً، وكناية.

ثامناً: مجئ الخطبة خالية من الأصباغ البديعة المتكلفة مما حقق لها الجودة وحسن التأليف.

تاسعاً: تأثر الحجاج في هذه الخطبة بزياد ابن أبيه في كثير من أساليب التهديد والترويع، فقد تأثر بقوله في خطبته البتراء : (فإياي ودلج الليل ، فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه) وبقوله فيها أيضاً :(وايم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة)[١]

وختاماً ننوه بأن تراثنا النثري . وخصوصاً فن الخطابة . ما زال في حاجة إلى العديد من الدراسات البلاغية الجادة التي تكشف عما ينطوي عليه نظم هذا التراث من درر وجواهر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) راجع : خطبة زياد ابن أبيه البتراء في جمهرة خطب العرب ٢/٢٧٠.

المصادر والمراجع

١- **أسرار البلاغة للشيخ /عبد القاهر الجرجاني** تحقيق الشيخ/ محمود محمد شاكر ،ط: دار المدني جده ــ ط: أولى ١٤١٢هـ ــ ١٩٩١م .

٢- **الأعلام للزركلي** ، ط:دار العلم للملايين.ط:خامسة، ٢٠٠٢م .

٣- **الأغاني لأبى الفرج الأصفهانى** .تحقيق / سمير جابر ط: دار الفكر ــ بيروت ــ ط: ثانية ــ بدون تاريخ .

٤- **أمالي القالي** ــ ط:دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م .

٥- **الإمامة والسياسة لابن قتيبة** . تحقيق/خليل منصور، ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط: أولى ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م .

٦- **الإيضاح للخطيب القزوينى** ــ تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجى ط: دار الجيل ــ بيروت ــ ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٣م .

٧- **البداية والنهاية لابن كثير** ــ نشر : دار المنار ــ القاهرة ــ ط:أولى ١٤٢١هـ ٢٠٠١م .

٨- **البديع من المعانى والألفاظ** د/ عبد العظيم المطعنى نشر : مكتبة وهبة ، ط: أولى ١٤٢٣هـ ــ ٢٠٠٢م .

٩- **البلاغة أسسها وعلومها وفنونها** / عبد الرحمن الميدانى (بدون نشر) ١٩٩٣م .

١٠- **البلاغة الواضحة** للأستاذين / علي الجارم ، ومصطفى أمين ، نشر : دار المعارف ــ القاهرة ــ بدون تاريخ .

١١- **البيان والتبيين للجاحظ**.تحقيق/موفق شهاب الدين ، ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت،ط:أولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م .

١٢- **تاريخ ابن خلدون**. ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ط: أولى ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢م .

١٣- **تاريخ الطبرى** ــ تقديم/ صدقى جميل العطار ــ نشر: دار الفكر ــ بيروت ــ ط: أولى ــ ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٨م .

١٤- **تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر**. تحقيق/ محب الدين العمروي ، ط: دار الفكر ــ بيروت ــ ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م .

١٥- **تمثال الأمثال للشيبى** ــ تحقيق / أسعد ذبيان ط: دار المسيرة ــ بيروت ــ بدون تاريخ .

١٦- **الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم** أ/ حنا الفاخورى ، ط: دار الجيل ــ بيروت بدون تاريخ .

١٧- **جمهرة الأمثال لأبى هلال العسكرى** تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ــ ط: دار الفكر ط: ثانية ١٩٨٨م .

١٨- **جمهرة خطب العرب** د/ أحمد زكى صفوت ، نشر : المكتبة العلمية ــ بيروت ، بدون تاريخ .

١٩ــ **جمهرة اللغة** لابن دريد . تحقيق د/رمزي منير بعلبكي ــ ط:دار العلم للملايين ــ بيروت .ط: الأولى ١٩٨٧م.

٢٠- **الحركة الأسلوبية** د/ عبد الرازق محمد فضل ، مطبعة التركى ، بدون تاريخ .

٢١- **حروف المعاني** للزجاجي ــ تحقيق : د/علي توفيق الحمد ، ط: مؤسسة الرسالة ــ بيروت ، ط: أولى ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م .

٢٢- **خصائص التراكيب** د/ محمد محمد أبو موسى ، نشر : مكتبة وهبة ــ القاهرة ط/خامسة ١٤٢١هـ ــ ٢٠٠٠م .

٢٣- **دلائل الإعجاز** للشيخ / عبد القاهر الجرجانى ــ تحقيق الشيخ / محمد رشيد رضا ــ ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ بدون تاريخ .

٢٤- **دلائل الإعجاز** للشيخ / عبد القاهر الجرجانى ــ تحقيق الشيخ / محمود محمد شاكر . ط: دار المدنى بجدة ــ ط:ثالثة ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢م .

٢٥- **دلالات التراكيب** د/ محمد محمد أبو موسى ، نشر: مكتبة وهبة ــ ط: ثانية ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٧م .

٢٦- **زهر الآداب للقيروانى** ــ تحقيق د/على محمد البجاوي ط:البابى الحلبى.ط:ثانية. بدون تاريخ .

٢٧- **زهر الآداب للقيروانى** ــ تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد، ط:دار الجيل ــ بيروت، ط: خامسة ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٩م .

٢٨- **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون** لابن نباتة المصري ــ تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم ــ نشر: المكتبة العصرية ــ بيروت ــ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م .

٢٩- **سير أعلام النبلاء** لشمس الدين الذهبي ــ ط: دار القلم ــ بيــروت ــ بدون تاريخ .

٣٠- **شروح التلخيص** ــ نشر : دار الإرشاد الإسلامي ــ بيــروت ــ بدون تاريخ .

٣١- **صبح الأعشى للقلقشندى** ــ تحقيق د/ يوسف على طويل ط: دار الفكر ــ بيروت ــ ط: أولى ١٩٨٧م .

٣٢- **الصناعتين لأبى هلال العسكرى** تحقيق د/ مفيد قميحة ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط: ثانية ١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م .

٣٣- **العقد الفريد لابن عبد ربه** ــ ط: دار إحياء التــراث العربــى ــ بيروت ، ط: أولى ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٦م .

٣٤- **علم المعانى** د/ صبَّاح دراز ــ مطبعــة التركــى ــ دمنهــور ــ ١٩٩٧م .

٣٥- **عمدة القارئ للعينى** ، مراجعة / صدقى جميــل العطــار ط: دار الفكر ــ بيروت ــ بدون تاريخ .

٣٦- **عيون الأخبار** لابن قتيبة ــ ط: دار الكتب العلميــة ــ بيــروت ــ بدون تاريخ .

٣٧- **فتح الباري** لابن حجر تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقى ــ ط: دار المنار ــ بيروت ــ ط: أولى ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٩م .

٣٨- **قضايا النقد الأدبى المعاصر** د/ محمد زكى العشــماوى ط: الهيئــة العامة للكتاب الإسكندرية ، بدون تاريخ .

٣٩- **الكامل في التاريخ لعز الدين بن الأثير** ــ مراجعة وتصحيح د/ محمد يوسف الدقاق ــ ط:دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط:الرابعة:١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٣م.

٤٠- **الكامل في اللغة والأدب للمبرد** .تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي، ط:دار الكتب العلمية ــ بيروت ط: أولى ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٩م .

٤١- **الكامل في اللغة والأدب للمبرد** ــ تحقيق د/محمد أبو الفضل إبراهيم ــ نشر: دار الفكر ــ القاهرة ــ ط: الثالثة ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٧م .

٤٢- **الكتاب لسيبويه** ــ تعليق د/ جميل بديع يعقوب ــ ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ط: أولى ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م .

٤٣- **الكشاف للزمخشري** ــ شرح وضبط / يوسف الحمادى ــ نشر : مكتبة مصر . الفجالة . بدون تاريخ .

٤٤- **كنز العمال لعلاء الدين البرهان قوري** ــ تحقيق/بكرى حيانى ، صفوت السقا.نشر: مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط: خامسة : ١٤٠١هـ ــ ١٩٨١م .

٤٥- **لسان العرب لابن منظور** ــ طبعة ونشر : دار الحديث ــ القاهرة ١٤٢٣هـ ــ ٢٠٠٣م .

٤٦- **مجمع الأمثال للنيسابوري** تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد ــ ط: دار المعرفة . بيروت ــ بدون تاريخ .

٤٧- **مروج الذهب للمسعودى** تحقيق د/ مفيد قميحة ــ ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ بدون تاريخ .

٤٨- **المستطرف في كل فن مستظرف لأبى الفتح الأبشيهى** ــ تحقيق د/ مفيد قميحة ــ ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط: ثانية ١٩٨٦م .

٤٩- **المستقصى في أمثال العرب للزمخشرى** . ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط : ثانية ١٩٨٧م .

٥٠- **مسند الإمام أحمد** ــ تحقيق الشيخ / شعيب الأرنؤوط ــ نشر : مؤسسة قرطبة ــ القاهرة ــ بدون تاريخ .

٥١- **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص** للشيخ/ عبد الرحيم بن أحمد العباسى ــ تحقيق د/ محمد محيى الدين عبد الحميد ــ نشر: عالم الكتب ــ بيروت ١٣٦٧هـ ــ ١٩٤٧م .

٥٢- **مغني اللبيب** لابن هشام ــ تحقيق د/ مازن المبارك ، ومحمد علي حمدالله ، ط: دار الفكر – بيروت ــ ط: سادسة ، ١٩٨٥م .

٥٣- **مفتاح العلوم للسكاكى** ــ ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ بدون تاريخ .

٥٤- **مقاييس اللغة لابن فارس** ــ تعليق/ إبراهيم شمس الدين، ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط: أولى ١٤٢٠هـ ــ ١٩٩٩م .

٥٥- **من أسرار التعبير بالحروف المشبهة بالفعل (إن وأخواتها) في القرآن الكريم** د/ هاشم محمد هاشم ــ ط: أولى ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م .

٥٦- **نقد النثر** لقدامة بن جعفر ــ ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م .

٥٧- **نهاية الأرب في فنون العرب** للنويري ــ تحقيق/على محمد البجاوي ، ط:الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ــ١٣٩٦هـ ــ ١٩٧٦م.

٥٨- **نهاية الأرب في فنون العرب** للنويرى ــ تحقيق د/ مفيد قميحة وآخرين ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط: أولى ١٤٢٤هـ ــ ٢٠٠٤م .

٥٩- **وفيات الأعيان لابن خلكان** ــ تحقيق د/ يوسف على طويل ، د/ مريم قاسم طويل ــ ط: دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط: أولى ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م .